

الدكتور شوقي أبو خليل

١٩٩٣

بالأطـالـلـ الشـهـادـاـ

بـقـيـادـةـ عـبـدـ الرـحـمـنـ الـفـانـيـ

دار الفـكـرـ
دمشق - سوريا

دار الفـكـرـ المـعاـصرـ
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٠٥، ٠٣١
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ٤٩١، ٠٣١
الرقم الدولي للسلسلة: 1-57547-500-6
الرقم الدولي للحلقة: 1-57547-503-0

الرقم الموضوعي : ٩٣٠
الموضوع : تاريخ العرب والإسلام
السلسلة: المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام
العنوان : بلاط الشهداء
التأليف : د. شوقي أبو خليل
الصف التصويري : دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات : ٨٠ ص
قياس الصفحة : ٢٠×١٤ سم
عدد النسخ : ٢٠٠٠ نسخة
جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي
والسموع والخاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن
خطي من

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: ٩٦٢ (٩٦٢) دمشق - سوريا
برقية: فكر

فاكس ٢٢٣٩٧١٦، ٢٢٣٩٧١٧
هاتف ٢٢١١١٦٦، ٢٢٣٩٧١٧
<http://www.fikr.com/>
E-mail: info @fikr.com

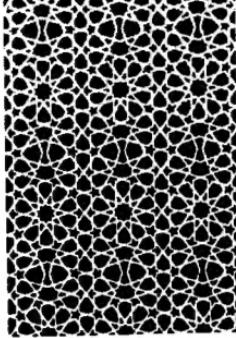
١٩٩٨
الكتاب
حضارة وابداع



إعادة

١٩٩٨ م = ١٤١٨ هـ

٣ ط : ١٩٨٠ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِلَّاطُ الشَّهَدَاءِ

بِقِيَادَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْغَافِي

بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي / شوقي أبو خليل .
دمشق : دار الفكر ، ١٩٩٨ . - ٧٨ ص ، ٢٠٤ سم . - (المعارك الكبرى
في تاريخ الإسلام)
صدرت الطبعة الثالثة عام ١٩٨٠ .
١- ٩٥٦ خ لـ بـ ٢- العنوان ٣- أبو خليل ٤- السلسلة
مكتبة الأسد

١٩٩٨ / ٢ / ٣٣٦ ع

تصدير

﴿ وَلَا تَقُولُوا مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ
أَمْوَاتٍ بَلْ أَحْيَا، وَلَكُنْ لَا تَشْعُرُونَ، وَلَنْ يُنْبَلُوْنَكُمْ
بَشِيءٍ مِنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِيرُ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ
إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ، أَوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَواتُ الرَّبِّ مِنْ دِيْنِهِ وَرَحْمَةٌ
وَأَوْلَئِكَ هُمُ الْمَهْتَدُونَ ﴾

البقرة : ١٥٤/١٥٧

بِسْمِ اللَّهِ، لِهِ الْحَمْدُ وَالشَّكْرُ وَحْدَهُ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مَنْ
لَا نَبِيٌّ بَعْدَهُ ٠

إن أول واضع لخطة الفتوحات الإسلامية في أوربة هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ ندب عبدالله بن سعد بن أبي سرح لفتح بلاد شمال افريقيا، ووافته الشائرة بفوز جيشه على جيوش جرجير والي « سبيطة » من قبل البيزنطيين، فندب عبد الله بن عبد القيس، وعبد الله بن نافع بن الحصين الفهريين، وكانا على الأسطول، فأمرهما بالمسير إلى الأندلس، وكتب لهما في ذلك ، تلك الوصية الرائعة التي يقول فيها : « إن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس ، وإنكم إن فتحتم ما أتتم بسبيله تكونون شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر ^(١) ٠ »

وقد اتخذ ولاة شمال افريقيا ، وقواد أجنادها هذه الوصية

(١) التلجمون الراهن ، ج : ١ ، ص : ٨٤ ، الكامل ، ج : ٣ ، ص : ٤٧
الطبرى ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٣

نبراساً لسياستهم الإسلامية التي يسيرون عليها ، فهي تعني حصار
القسطنطينية من البر الأوروبي ، وتفيد في اضعاف المدد الممكن
للقسطنطينية عند حصارها .

وأول أمير شرع في إعداد الوسائل والمعدات لتنفيذ تلك
الوصية ، الأمير حسان بن النعمان ، وذلك بعد أن دان له شمال
افريقيا بالطاعة ، فقد أنشأ بناء قرطاجنة – في تونس – دار
الصناعة لبناء السفن والأساطيل وصنع الأسلحة ، وجلب لها
الصناع من سكان مصر ، وسار على منهاجه موسى بن نصير .
وكان بعدها أن اجتاز طارق بن زياد – بتكليف من
ابن نصير – بجيشه أرض العدوة إلى الأندلس ، حيث فتحها الله
له ، ووصل المسلمون إلى حدود فرنسة ، ثم عبروا الحدود فاتحين ،
وجرت معارك كثيرة ، كان أهمها « بلاط الشهداء » .

ولعل التاريخ الإسلامي كله لم يقدم إلينا حادثاً جللاً ، كان
له من الخطورة والأهمية وبعد الأثر ، ما كان لوقعة بلاط الشهداء ،
فلو لم يرد المسلمون في سهل « تور » لما كانت ثمة أوربة نصرانية ،
بل لعله ما بقيت نصرانية على الاطلاق ، ولكان الإسلام يسود
أوربة ، ول كانت أوربة الشمالية تموج اليوم بأبناء الشعوب
السامية ذوي العيون الدعج ، والشعور السود ، بدلاً من أبناء
الشعوب الآرية ، ذوي الشعر الأشقر ، والعيون الزرقاء .

والمصادر العربية عن المعركة قليلة مقتضبة ، فلم يذكر
الواقدi والبلذري والطبرi ٠٠٠ وهم من أقدم رواة الفتوح ،
 شيئاً عن المعركة ، ومن هنا جاءت صعوبة الكتابة عن بلاط الشهداء

وبطلها عبد الرحمن الغافقي ٠ وابن الأثير لم يذكر في حوادث سنة ١١٣ هـ / ١١٤ هـ سوى تكرار رواية ابن عبد الحكم ، وهي مقتضبة أيضاً ٠

فالروايات العربية موجزة ، وهذا يدل على فداحة الخطب الذي أصاب الإسلام في سهل تور ، على عكس الروايات النصرانية التي تفاصيل الموقعة ، وتشيد بظفر شارل مارتل – أو «قارلة» كما تسميه المراجع العربية – وترفع من بطولته ، وتذهب الرواية النصرانية ، ومعظم كتابها من الأحجار المعاصرين ، في تصوير نكبة المسلمين إلى حد الإغراق ، فترى أن القتلى من المسلمين في الموقعة بلغوا ثلاثة وخمسة وسبعين ألفاً ، في حين أنه لم يقتل من الفرنجة سوى ألف وخمسين ألفاً ، ومنشأ هذه الرواية رسالة أرسلها الدوق أودو إلى البابا جريجوري الثاني يصف فيها حوادث الموقعة ، وينسب النصر لنفسه ، فنقلتها التواريخ النصرانية المعاصرة وكأنها حقيقة يستطيع العقل أن يسيغها ، بيد أنها لم تكن سوى خرافات محسنة ٠

ففي « بواتيه » لم يتحقق الجيش الإسلامي بالمعنى المفهوم للهزيمة الساحقة ، ولكنه كان ارتداداً ، بل انسحاباً منظماً من تلقاء نفسه ، فقد لبث يقاتل طوال المعركة الفاصلة حتى المساء ، محتفظاً بمبرأته أمام العدو ، ولم يرتد أثناء القتال ، والدليل على هذا القول ، رهبة الفرنجة من مطاردة المسلمين ، وحدتهم من اللحاق بهم عقب بواتيه ، وتجسدهم من كون انسحاب المسلمين خديعة حربية ، وخطبة مبيضة ، ولو أن الجيش الإسلامي اتهى

إلى أنقاض — كما تصوره الرواية النصرانية الكنسية — لبادر الفرنجة إلى مطاردته والاجهاز عليه ، ولكنه كان ما يزال من القوة والكثرة إلى حد يخيف العدو ويرده ٠

إن أفح حسارة في بواتيه كانت استشهاد الغافقي ، لأنه الرجل الوحيد الذي استطاع بهيته وقوته إيهانه ، وشخصيته الملزمة بإسلامه الصافي أن يجمع الإسلام في الأندلس ، فكان مقتله في هذا المأزق العصيب ، ضربة شديدة مثل الإسلام ، ولمشاريع الخلافة في افتتاح أوربة ٠

— استشهد عبد الرحمن الغافقي في بلاط الشهداء ، فكان الانسحاب الإسلامي ٠

— استشهد وهو يحاول رأب الصفوف التي تصدّعَت عندما هاجم الفرنجة الغنائم التي كانت مكَدَّسة خلف الصفوف ٠ ومع هذا كله ، فإن على ذاكرة التاريخ أن لا تنسى أولئك الذين بذلوا وأظهروا كل ضروب الوفاء والتضحية والصدق والاخلاص والبسالة والشجاعة ، ولكنهم أصبحوا قادة بلا جنود فهمزوا ، أو جنوداً بلا قائد فآثروا الرجوع ٠ وفي أغلب الأحيان ، فإن ذاكرة التاريخ تذكر بالفخر والاعجاب الأبطال الذين صنعوا الاتصالات ، وتجعلهم في مركز الصدارة ، ولذا فهي تخلّد الغافقي بطلاً عظيماً ، وإن لم يكن قد حقق النصر في بواتيه ، وذلك لما أبداه من الطموح والصدق في نشر الدعوة الإسلامية ، مع ثقته بنفسه وجيشه ، وحزمه في أمره ، ولكنه استشهد في المعركة الفاصلة وأصبح الجندي بلا قائد ٠

ولو أنه انتصر في بلاط الشهداء لعنت شهرته الخافقين ،
ولأصبحت الدنيا منذ ذلك الحين مسلمة ، ويكتفي الغافقي فخراً
أنه بالاسلام ، وبالاسلام وحده ، أوصل جيوش المسلمين الى
ضواحي باريس ، ويكتفي الاسلام فخراً ، أنه أوصل العربية
والعروبة الى قلب فرنسة ، فلو لا الاسلام لبقيت قبائل العرب في
جزيرتها — ولا ندرى الى متى ! — تحت وصاية الفرس والرومان .
والحقيقة التي لا جدال فيها . . انه في سهول «تور-بواتيه»
فقدَ المسلمين سيادة العالم بأسره ، وتغيرت مصاير العالم
القديم كله ، وارتد تيار الفتح الاسلامي أمام الأمم الشمالية ، كما
ارتد قبل ذلك بأعوام أمام أسوار القسطنطينية ، وأخفقت بذلك
آخر محاولة بذلتها الخلافة لافتتاح أمم الغرب ، وإخضاع أوربة
لصولة الاسلام .

لأمر أراده الله ، لم يتصر المسلمين في بلاط الشهداء
« بواتيه » في القرن الثامن الميلادي ، إنها مشيئته جل شأنه ،
ليثبت للدنيا بأسرها أن الإسلام قوته ذاتية ، كامنة فيه ، وسيعم
نوره أوربة فيما بعد بواتيه بقرون ، فها هو اليوم « الدين
الزاحف » على عواصم الغرب في القرن العشرين ، وبشائره تجعل
النتائج المتوقعة محققة .

نجد المسلمين من أبناء أوربة دعاة إسلام ، والمنارات تتعالى
بالله أكبر في عواصم ومدن الغرب ، ليشهد العالم أن الإسلام
يتشر بلا سيف ، لأنه الأمل المنشود ، فيه التوازن الرائع بين
الدين والدنيا ، والروح والمادة ، والعقل والقلب .

لقد وعى برناردشو حاجة أوربة الى هذه المعاني ، فقال :
 ما أحوج العالم الى دجل مثل محمد ليحل مشكلاته ٠٠٠ ولن
 ينضي هذا القرن العشرون إلا وأوربة يعمها الاسلام ٠
 في فرنسة وحدها اليوم أربعة ملايين مسلم من أبنائها
 الأصليين ، غير الجاليات الإسلامية ، وهذا الرقم يتضاعف لزيادة
 الدعاة من الذين أسلموا ٠

وفي أمريكا اليوم ملايين المسلمين ، وهذا العالم الأمريكي :
 Michal H. Hart « يجمع أعظم شخصيات العالم ، منذ بدء
 العصور التاريخية ، وحتى عصرنا الحالي ، ويتنقى منها مئة شخصية
 فقط ، لها أثرها العالمي في شتى مجالات الحياة ، ويرتباها في كتابه :
 « المئة : The 100 » بحسب أهميتها وأثرها في البشرية ، فكان
 سيدنا محمد بن عبد الله عليهما السلام الشخصية الأولى في الكتاب « فهو
 الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بتفوق على الصعيدين الديني
 والمدني » وهذا مصدق لقوله عليهما السلام : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » ،
 معرفاً بقيمة ما جاء به من عند الله سبحانه ٠
 يقول عز وجل في محكم التنزيل : « ليظهره على الدين كله »
 وهذه الآية الكريمة لم نشهد بعد تحقق معناها الشامل ، ونرى
 اليوم بواحد شمولها ، ولا بد وأن يشهد جيلنا ذلك ، ولو بعد حين ٠
 إلى الجزء السادس من هذه السلسلة ، إلى بلاط الشهداء
 وأحداثها ، والدرس المستفاد منها ، على بركة الله ٠

شوقي أبو خليل

ص. ب : ٦٢٢
 دمشق - سوريا

المسلون في فرنسة

★ « استباب الفتح في الأندلس ، وهد
لنقل ميدان الجهاد وراء جبال البرانس » .

فتح المسلمين الأندلس فتح استقرار وإقامة ، فطبعت معالمها بالحضارة العربية الإسلامية ، وفكّر موسى بن نصير في عبور جبال البرانس^(١) ، لبسط السيادة الإسلامية على فرنسة ، ومن ثمّ الاتجاه شرقاً لفتح القسطنطينية ، معقل الروم ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي من هذه المغامرة ، إذ لم يحدث تاريخياً أن جيشاً قد اخترق أوربة من الأندلس حتى شواطئ البحر الأسود دفعة واحدة ، فاستدعاي الوليد موسى وطارقاً .

ولما كانت ولاية السمح بن مالك الغولاني^(٢) عام ١٠٠ هـ ، الذي يشبعه بعمر بن عبد العزيز في إسلامه وتقواه وخلقه ، والذي وصفه ابن الأثير بأنه من أفاليل عرب إفريقياً ، ومن خيرة الولاية

(١) أو جبال البرينيه ، وفي العربية البرت أو البرتات أو البرانس Pyrenees أي « الأبواب » ، ومن ثم فقد سميت أيضاً جبال الأبواب ، ويقال لها « الحاجز » .

(٢) اختاره عمر بن عبد العزيز : « لمعرفته هذه الشخصية الندية المجاهدة الباسلة الممثلة أيامانا وحماسة ورغبة للعمل الخير والجهاد الفاتح ، وأحسن الخليفة ابن عبد العزيز الاختيار » فحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق . . . التاريخ الاندلسي ص : ١٨٩ .

الذين تولوا أمر الأندلس ، وعاد الحماس الى الجند الإسلامي لمعاودة الغزو في غاليا^(١) ، فنقل مركز الخلافة إلى قرطبة^(٢) ، لاعادة التنظيم الاداري ، ولتأمين الجبهة الداخلية ، استعداداً للفتح خلف جبال البرانس ٠

سار السمح إلى أرض غاليا ، وفتح اقليم سبتمانيا^(٣) ، واتخذ أربونة^(٤) قاعدة لعملياته الحربية في فرنسة ، فأعاد ترميم الحصون ، ودعى بها بجند مسلمين ، وتتبع مجرب نهر الجارون ، واتجه غرباً حتى وصل طولوشة عاصمة أكويتانيا ، التي قاومت حتى وصلتها الإمدادات ، وأخذ السمح يشد من أزر جنده المسلمين ، ويتو عليهم بروح مؤمنة مستينة صادقة ، قوله تعالى : « إِن يُنَصِّرَكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ٠ »

ولكن السمح أصيب بطعنة عميقة بالغة في المعركة التي دارت على أسوار طولوشة عام ١٠٢ هـ / ٧٢١ م ، ففت ذلك من عضد الجند المسلمين ، فارتدوا جنوباً عن طولوشة ، التي تعتبر أول نكسة للمسلمين في أرض غاليا « فرنسة » ٠

(١) غاليا ، أو غالة ، أو الارض الكبيرة تعني فرنسة حالياً ٠

(٢) كانت العاصمة طليطلة ، ثم أصبحت اشبيلية زمن عبد العزيز بن موسى ، ونقلها السمح إلى قرطبة ، التي استمرت عاصمة الاندلس حتى نهاية الدولة الاموية في الاندلس ٠

(٣) سبتمانيا : منطقة ساحلية من البرانس غرباً إلى مصب نهر الرون شرقاً ، واسسها اليوم « الرفيرا » ، وهي تطل على البحر المتوسط جنوب فرنسة ، عاصمتها أربونة ٠

(٤) إلى اليوم في المدينة شارع يحمل اسم « السمح » ٠

وسقط السمح شهيداً ، وانسحب المسلمون بعد أن فقدوا قائدتهم المغوار البطل ، وكان عبد الرحمن الغافقي أحد جنود السمح في المعركة ، فأجمع الجيش المسلم على اختياره للقيادة ، ورأى من الحنكة أن يرتد إلى الجنوب ، ولكن حزنه الأليم على مصرع السمح ، واستشهاد رفاته جعله يفكر جدياً في الاتقام لصارع الأبطال ، واستئناف الغزو والهجوم ، وكانت تلك ولاية عبد الرحمن الأولى ، التي لم تدم إلا بضعة أشهر .

عين عامل افريقية يزيد بن أبي مسلم عنبرة بن سحيم الكلبي عام ١٠٣ هـ / ٧٢١ م أميراً على الأندلس . فقضى عنبرة السنوات الأربع الأولى من إمارته في تنظيم أمور الأندلس وتهذيبها ، وانهاء الخلافات العصبية ، ثم واصل حروبه في غاليا ، وسار على الساحل حتى وصل نهر الرون ، بعد أن مرّ من مدن: أربونة ، ومونبليه ، ونيمة ، وأبنيون ، وفي وادي الرون فتح مدن: فالنس ، فيني ، ليون ، شالون ، حيث سار قسم من الجيش شمالاً باتجاه ديجون ، ولانجر ، وقسم باتجاه أوتون ، ووصل مدينة سانس .

اكتسح المسلمون بقيادة عنبرة حوض الرون ، بزحف ظافر علق عليه مؤرخون معاصرؤن له ، بأن الله قذف في قلوب الكفار الرعب ، فلم يتصد أحد منهم للمسلمين إلا لطلب الأمان^(١) .

فتح المسلمون المناطق الفرنسية الجنوبيّة والشرقية ، ولم يجدوا مقاومة إلا في مدينة سانس — الواقعة على بعد ثلاثة

(١) المسلمين في أوربة ، ص: ١٠٥ ، عن: غزوات العرب لارسلان .

كيلو متراً فقط جنوبي باريس - والتي كانت عاصمة إقليم يوند ، وفيها تصدى إيبون أسقف المدينة للزحف الإسلامي ، وإن قد استعد له من قبل ، فحضر المدينة ، وحشد مواطنه ، فهربوا معه لحماية مدينتهم ، ونجحوا في ايقاف الزحف الإسلامي^(١) .

أدرك عنبرة بعد هذا الزحف المظفر ، الذي أوصله إلى ضواحي باريس ، أنه توغل أكثر مما ينبغي ، فخشى أن يقطع العدو خطوط تموينه ، أو طريق عودته ، وبخاصة أنه سمع بانبعاث العصبية في الأندلس من جديد ، ووقع خلاف فيما بين العرب والبربر .

وهذا الذي شعر به عنبرة ، كان حدساً صحيحاً ، في بينما كان في طريق عودته داهمته جموع كبيرة من الفرنجة ، فالتحم معهم ، وأصيب بجراح بالغة في شعبان ١٠٧ هـ / ٧٢٥ م ، استشهد على أثرها ، فعادت بقية الجيش بقيادة عذرة بن عبد الله الفهري إلى أربونة .

« ينبغي أن نلاحظ أن حملة عنبرة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبرة على نية الفتح الثابت ، لأن تم الاستيلاء على ما غالب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم ، وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى ، غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً ، وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها ٠٠٠

(١) فجر الأندلس ، ص : ٢٤٧ ، أرسلان « غزوات العرب » ، ص : ٧٩ - ٨٠

ومهما يكن من الأمر فإن عنبرة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برأيات الإسلام إلى قلب أوربة الغربية ، ولم يدرك هذا الشأن بعد ذلك فاتح مسلم آخر »^(١) .

خلف عذرة النهري عنبرة في حكم الأندلس ، وبقي من شوال ١٠٧ هـ ، وحتى ربيع الأول ١١٠ هـ ، فواصل حروبه في فرنسة ، فاقتصر سبتمانية مرة أخرى ، ودخل حوض الرون .

ومما يذكر أن المسلمين في هذه الفتوح ، أو السرايا ، ما تعرضوا إلى كنيسة أو دير ، غير أن المراجع النصرانية الأوربية أطلقت العنوان لخيالها ، فكلما وجدت ديراً قد احترق ، أو كنيسة تخرّب في هذه الفترة من الزمن ، نسبت ذلك إلى المسلمين ، مع العلم أن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى بعضهم مع بعض في هذه الجهات من غاليا على وجه الخصوص .

من المؤرخين الأوربيين الذي اتهموا المسلمين بالتخريب والاحراق المؤرخ « رينو » ، مع أنه يعلم أن « كلوفس » أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبى غاليا وفي بورجونيا ، وفي أقطانية من التخريب والأضرار ما فاق كل وصف ، وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هم في غاراتهم في غاليا إلا تخريب الكنائس والأديرة واعمال النار في المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وافريقيا والأندلس ، وهي كلها غاصبة بالكنائس والأديرة ، وما إليها من

(١) فجر الأندلس ، ص : ٢٤٨ .

المؤسسات النصرانية ، فلم يحرقوا . ولم يخربوا ، فسن عجب أَنْ ينقلب حالهم إِذَا عبروا إِلَى غاليا ، فيتتحولوا إِلَى برابرة مخربين لا يكادون يبقون عَلَى شيءٍ !!

ويعلق الدكتور حسين مؤنس في فجر الاندلس على مأسيق قائلًا : « الواقع أَنْ هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول ، فليس من الجد في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غاليا غير تحرير الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديرًا ، وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غاليا في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط عربين ، وقوط شرقين وبرغنديين ومن إِلَيْهم ، لتبيننا أنَّ المسلمين كانوا أَعظم حضارة ، وأَبعد عن النهب والتخريب ، ومهمما بحثنا في حوليات ذلك العصر ، فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غاليا خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي ، رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك ، أو عنبرة بن سحيم ، أو عبد الرحمن الغافقي » ٠

المسلمون على عكس الوندال الذين سبقوهم ، وبعكس شارل مارتل « قارلة » وبيين وشارلمان فيما بعد ، فهو لاءٌ هم الذين

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٥٨ . ويرى د . عمر فروخ في : « العرب والاسلام في الحوضين » ص : ١٣٣ : « إن عدداً من الكنائس والأديرة - وخصوصاً تلك التي كانت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة « تور » مثلاً - كانت في الحقيقة قلاع وحصونا ، وكان الفرنجة يقاتلون العرب من ورائها ، فليس بدعاً أَنْ إذا هدمها العرب في أثناء المعارك » .

نهوا الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخربوها بعد معركة
بلاط الشهداء !

★ وصل عبد الرحمن الغافقي الى ولاية الأندلس ثانية ،
وموقعة طللوشة ترك أثراً عميقاً في نفسه ، وأخذ منها درساً كبيراً ،
هو الحيطة والحذر ، كما أشعلت الحماس في قلبه للثار لما أصاب
المسلمين من هزيمة .

استعد الغافقي استعداداً كبيراً لغزو فرنسة ، وأعلن الدعوة
للحجـاد في سبيل الله ، وأعلن هذه الدعوة في افريقيـة ، كما أعلـنـها في
الأندلس ، فتدفق عليه المتطوعون من كل ناحـية ، وـتـجـمـعـ لـدـيـهـ عـدـدـ
ضـخـمـ مـنـ مـجـاهـدـيـنـ ، بلـغـ مـاـيـنـ سـبـعـيـنـ إـلـىـ مـائـةـ أـلـفـ رـجـلـ ، وـبـدـأـ
تـحرـكـهـ بـعـبـورـ جـبـالـ البرـتـ فيـ أـوـاـلـ سـنـةـ ١١٤ـ هـ / ٧٣٢ـ مـ^(١) .

وفي غالـياـ استـعدـ دـوقـ اـكـويـتـانـياـ ، وـاسـمـهـ «ـأـوـدـوـ»ـ لـلـقـاءـ
الـمـسـلـمـيـنـ ، وـهـوـ الـذـيـ دـأـبـ عـلـىـ حـمـاـيـةـ دـوـقـيـتـهـ بـشـتـىـ الـوـسـائـلـ ،
وـأـهـمـهـ إـثـارـةـ الـخـلـافـ بـيـنـ الـمـسـلـمـيـنـ عـرـبـاـ وـبـرـبـرـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ .

ورأـيـ عبدـ الرـحـمـنـ الغـافـقـيـ أـنـ يـطـهـرـ الـجـبـهـ الـدـاخـلـيـةـ قـبـلـ أـنـ
يـشـتـبـكـ مـعـ أـعـدـاءـ الـاسـلـامـ فـيـ مـوـقـفـ حـاسـمـ ، فـبـعـثـ بـكـتـيـةـ مـنـ
جـنـوـدـهـ إـلـىـ عـمـانـ بـنـ أـبـيـ نـسـعـةـ ، بـقـيـادـةـ اـبـنـ زـيـانـ ، فـهـرـبـ اـبـنـ أـبـيـ
نـسـعـةـ مـعـ أـنـصـارـهـ إـلـىـ الـجـبـالـ ، فـتـتـبـعـهـ اـبـنـ زـيـانـ وـقـضـىـ عـلـيـهـ
وـعـلـىـ ثـورـتـهـ^(٢) .

(١) المسلمين في أوربة ، ص: ١٠٨ .

(٢) سـنـنـاقـشـ «ـخـرـافـةـ مـوـنـوـسـةـ»ـ فـيـ خـاتـمـ هـذـاـ الـكتـابـ ، كـمـاـ وـرـدـ فـيـ الـكتـبـ
الـمـتـمـدـةـ ، وـنـفـنـدـ مـاـ نـسـجـ خـولـهـ مـنـ قـصـصـ خـيـالـيـةـ غـرـامـيـةـ .. وـأـنـ لـاـ عـلـاـقـةـ لـهـ بـأـحـدـاتـ
ابـنـ أـبـيـ نـسـعـةـ .

جمع عبد الرحمن الغافقي المجاهدين في مدينة بنبلونة ، وخرج باحتفال مهيب ليعبر جبال البرانس في أوائل صيف عام ٧٣٣ م من مرات رونسفال ، واتجه شرقاً في جنوبى غالياً ، ليغسل الفرنجة عن وجهه الحقيقة ، فأخضع مدينة أرل التي خرجت على طاعة المسلمين ، ثم اتجه إلى دوقية أقطانياً ، فانتصر على الدوق أودو اتصاراً حاسماً ، وتقهقر الدوق من عاصمته بُرْدَال ، ومضى الغافقي في طريقه متبعاً مجرى نهر الجارون ففتح بُرْدَال ، واندفع شمالاً في السهل المتسع الذي يحده شمالي نهر اللوار ، وجنوبياً نهر الجارون ، ووصل إلى مدينة بواتيه .

أصبح عجز الدوق أودو واضحاً في مواجهة المسلمين ، فاستصرخ « شارل مارتل ، قارلة » حاجب قصر المiroنجين ، وكان صاحب الأمر والنهاي في دولة الفرنجة .

لبى شارل النداء ، وكان قبلها لا يحفل بحركات المسلمين في جنوب فرننسة ، بسبب الخلاف الذي بينه وبين دوق أقطانياً الذي كان سببه طمع شارل بالدوقية ، وبذلك توحدت قوى التصريانية في غالياً للوقوف في وجه المسلمين ، ورحب شارل بالفرصة ليسطّ نفوذه على أقطانياً وأراضيها الواسعة ، بعد أن شعر بالخطر الإسلامي ، حين غزا المسلمين بورجוניما ، وهي داخلة في بلاده ، وصعدوا حتى قاربوا اللوار^(١) .

اجتمعت الفرنجة إلى شارل مارتل ، وقالت له : ما هذا الخزي

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٧ .

الباقي في الأعقاب !؟ كنا نسمع بالعرب ونخافهم من مطلع الشمس ، حتى أتوا من مغربها ، واستولوا على بلاد الأندلس ، وعظيم ما فيها من العدة والعدد ، بجمعهم القليل وقلة عدتهم ، وكوئنهم لا دروع لهم . فأجابهم :

« الرأي عندي ألاًّ تعتضوا بهم في خرجتهم هذه ، فانهم كالسيل يحمل ما يصادفه وهم في اقبال أمرهم ، ولهم نيات تغنى عن كثرة العدد ، وقلوب تغنى عن حصانة الدروع ، ولكن أمهلوهم حتى تمتليء أيديهم من الغنائم ، ويتخذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرئاسة ، ويستعين بعضهم على بعض ، فحينئذ تتمكنون منهم بأيسر أمر » . »

قال المقرى : فكان والله كذلك ، بالفتنة التي طرأت بين الشاميين والبلديين ^(١) ، والبربر والعرب ، والمcriة واليمنية ، وصار بعض المسلمين يستعين على بعض بمن يجاورهم من الأعداء ^(٢) .

وأنهى شارل حربه مع السكسون والبافاريين ، وتنبه لفتح المسلمين الذين اجتاحوا معظم أقطانيا ، وأدرك أنهم لن يقفوا عند حد اخضاع أقطانيا .

* * *

(١) المقصود بالبلديين : العرب القدماء الذين جاؤوا من الحجاز ، وأسهموا في الفتح الأول ، واستقروا في جنوب إسبانيا ، وعرفوا بالبلديين تميزا لهم عن المجرات التي طرأت على الأندلس بعد ذلك .

(٢) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ١٢٩ .

فَائِدَ بِلَاطِ الشَّهَادَةِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْغَافِقِيِّ

★ قائد رشحه إيمانه وامكاناته القيادية،
وعبريته العربية للقيادة ، ولكن الظروف
لم تكفا مع عبريته العسكرية ٠

★ أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم
الغافقي ، نسبة الى غافق ، وهي قبيلة من الأزد ، وقيل : بل هو
غافق بن الحارث بن عك^(١) بن الحارث بن عدنان ٠

تابعٍ من أفذاذ الرجال ، جمع الى الشجاعة والاقدام العدل
في الأحكام ، والشهر على مصالح العباد ، وبعد النظر في السياسة،
ويذكر ابن بشكوال أنه روى عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهمما ٠

أخباره قليلة جداً ، لا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به
في تاريخنا الإسلامي ، ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء ، التي ختمت
حياة الغافقي ، كانت أليمة الواقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام
عنها قدر الطاقة ، وأصابوا الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا
الاكتفاء بمجرد الإشارة اليه ، مع عظيم تقديرهم له^(٢) ٠

رحل الى افريقيا ، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك

(١) عرف بالعكي نسبة الى بنى عك ، وغافق بطن منهم .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦١ ، الاعلام ، ج : ٤ ، ص : ٨٤ - ٨٥ ، وتاريخ
غزوات العرب لارسلان .

— الخليفة الأموي — بدمشق ، وعاد إلى المغرب ، فاتصل بموسى ابن نصير وولده عبد العزيز ، أيام اقامتهما في الأندلس •

ظهرت براعته في إنقاذ الجيش الإسلامي من المطاردة ، عقب مقتل السمح بن مالك الخولاني في طولوشا ، وتولى على أثر معركة طولوشا « تولوز » سنة ١٠٢ هـ ، فاتتقل إلى أربونة ، فاتتبخه المسلمون أميراً عليها ، وأقره عامل إفريقية^(١) ، ولما نشأ خلاف بينه وبين عبسة بن سحيم ، عزل عبد الرحمن ، وولي عبسة مكانه . فصبر عبد الرحمن مدة يغزو مع الغزاة ، إلى أن وليه هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة : ١١٢ هـ ، فطاف أقاليم الأندلس ، ينظر في مظالم الناس ، ويقتض من القوي للضعف ، ويعزل الولاة الذين حادوا عن جادة الاستقامة ، ويستبدل بهم ولادة معروفين بالعدل والنزاهة ، متأهباً لفتح بلاد الغال أو غالياً : Gallia — Gaule ، والتي عرفت عند المسلمين باسم : « الأرض الكبيرة » ، وهي فرنسة حالياً •

دعا عبد الرحمن المسلمين من اليمن والشام ومصر وإفريقية إلى مناصرته ، فأقبلت عليه الجموع المؤمنة المجاهدة ، فازدحمت بهم قرطبة قاعدة الأندلس أيام عبد الرحمن^(٢) •

جمع القلوب ، وساد الوئام في جيشه ، واستقبلت الأندلس عهداً جديداً بعد فتن ، فقد كان عادلاً حليماً نقياً ، رحب به جميع سكان الأندلس ، حاكماً بارعاً ظهرت مواهبه العربية في

(١) عامل إفريقية كان يعينه الخليفة ، ويعين هو عادة والي الأندلس .

(٢) وهو الذي بني قنطرة قرطبة المشهورة في سعتها وعظمتها وأبراجها .

غزوات غاليا ، حكيمًا قديرًا في شؤون الحكم والادارة مصلحًا مستثيرًا ، يضطرم رغبة في الاصلاح ، بل كان بلا ريب أعظم ولاة الأندلس ، وأقدرهم جميعاً .

رحبت الأندلس قاطبة بتعيين عبد الرحمن واليا عليها ، فعامل المسلمين والسيحيين على السواء كما أمر الإسلام من التسامح وحفظ الأموال والأعراض ، ولم يخرج قط في معاملة المسيحيين عن العهود والعقود معهم .

وأحبه الجندي لعدله ورفقه ولينه ، وكان يترنَّ المجاهدين على استعمال السلاح ، ويثير فيهم نخوة القتال ، وجمعت هيبة كل القبائل ، لأنَّه كان سليماً من التزعة العصبية التي ابتلي بها غيره ، ومن دلائل ذلك ، أنَّ عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية ، المتغصِّب لقيسيته ، أقامه على الأندلس وهو يمني من غافق ، لذلك ساد الوئام في الادارة والجيش ، وعني باصلاح الجيش ، وتنظيمه عنابة خاصة ، فحشد الصنوف من مختلف الولايات ، وأنشأ فرقاً جديدة مختارة من فرسان البربر ، بإشراف نخبة مؤمنة من الضباط العرب ، وحصن القواعد والثغور الشمالية .

وصف الحميدي عبد الرحمن بالصلاح ، والسيرة الحميدة ، والعدل وحبه الشديد للجهاد في سبيل الله^(١) ، وتحدث المصادر الأوربية النصرانية عن شجاعته النادرة ، ومقدراته الحربية العظيمة . وأورد ابن عبد الحكم رواية تدل على أنَّ عبد الرحمن كان

(١) جنوة المقبس ، ص : ٢٧٤ .

مسلمًا سليم الإيمان ، حريصاً على أصول الشريعة ، لا يحفل في سبيل ذلك بغضب من يبدهم الأمر ، يقول ابن عبد الحكم بعد الكلام عن إحدى غزواته ، وكان فيما أصاب عبد الرحمن رجلاً مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة بن عبد الرحمن القيسي عامل افريقية ، فغضب غضباً شديداً ، وكتب إلى عبد الرحمن كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن مجيئاً : « إِن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً^(١) ». •

رضي الله عن عبد الرحمن وأرضاه ، لكن كان عنبرة من طراز عقبة بن نافع ، تستهويه الغارات البعيدة المدى ، والضربات المدوية ، فإن عبد الرحمن من طراز حسان بن النعمان ، وطارق بن زياد ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، « فيعدون إلى مراكز المقاومة الفعلية وبها جموها ، لكي يتم الفتح ، وتدخل البلاد في حوزة الإسلام^(٢) ». •

ورحم الله شهيد بلاط الشهداء ، شهيد بواتيه ، رحم الله الأمير عبد الرحمن الذي رشحه إيمانه وامكاناته القيادية ، وعبريته الحرية إلى الإمارة ، ولم يرشحه نسب أو حسب ، ولكن الظروف لم تتسقًا مع تلك العبرية ، وستبقى سيرته ، وسيبقى ذكره في الخالدين ، مع الذين صدقوا ما عاهدوه عليه الله .

(١) فتوح البلدان ، ص : ١١٧ ، وفي « الكامل في التاريخ » ، ج : ٤ ، ص : ٢١٥.

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٦٣ .

الملعون قبيل المعركة

✿ المسلمين في جهادهم لهم نيات تغنى
عن كثرة العذاب ، وقلوب تغنى عن حسنة
الدروع .

فَكَرَّ عبدُ الرَّحْمَنَ الْغَافِقِيَّ ، وَخَافَ مِنْ لَهُوَ جَنْدَهُ بِالْغَنَائِمِ
الكثيرة ، التي كانوا يجرونها في أثناء زحفهم ، وَفَكَرَ جَدِيداً فِي
حَلْمِهِمْ عَلَى تَرْكِهَا فِي أَرْضِهَا ، لَثَلَاثَةٍ تَشْغِلُهُمْ عَنِ الْقَتْالِ ، فَتَكُونُ وَبِالْأَ
عَلَيْهِمْ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَشأْ وَهُوَ فِي مَأْزَقٍ كَذَلِكَ الْمَأْزَقُ أَذْيَفُهُمْ وَيَخْسِرُ
بِذَلِكَ تَوْحِيدَ قُلُوبِهِمْ ، وَبَقِيَّاً وَاثِقَاً بِشَجَاعَتِهِمْ وَبِيَمِنْ نَقْيَتِهِ فِي الْقَتْالِ .

لَقَدْ رَأَى عبدُ الرَّحْمَنَ وَأَوْلُو الْحَزَمِ مِنْ زَمَلَائِهِ ، أَنْ يَحْمِلُوا
الْجَنْدَ عَلَى تَرْكِهِ هَذِهِ الْأَثْقَالِ ، وَالْاِقْتَصَارَ عَلَى أَسْلَحَتِهِمْ وَخَيْرِهِمْ ،
وَلَكِنَّهُمْ خَشُوا التَّمَرُّدَ أَوْ أَنْ يَبْطُوا عِزَائِمَ الْجَنْدِ ، وَاسْتَلَمُوا
لِرَأْيِ الْمُسْتَهْرِيِّينَ ، وَاعْتَمَدَ عبدُ الرَّحْمَنَ عَلَى شَجَاعَةِ جَنْدِهِ ، وَحَسَنَ
مَالِعَهُ الْمُسْتَهْرِيَّ^(١) .

وَالْحَقُّ أَنَّهُ عِنْدَمَا وَقَفَ الْمُسْلِمُونَ فِي وَجْهِ الْفَرْنَجَةِ ، لَمْ يَكُنْ
سَكَانُ أُورَبَةِ يَتَمَنَّونَ خَنَارَةَ الْمُسْلِمِينَ وَهَزِيمَتِهِمْ ، لَقَدْ تَمَنَّى قَسْمٌ
كَبِيرٌ مِنْ سَكَانِ غَالِيَا اِتْتَصَارَ الْمُسْلِمِينَ ، بَعْدَمَا سَمِعُوا بِتَحْسِنَ حَالِ
الْإِسْبَانَ بَعْدَ دُخُولِهِمْ فِي حُوْزَةِ الْمُسْلِمِينَ الْفَاتِحِينَ ، حِيثُ اِتَّقَلُوا مِنْ

(١) مَوْاقِفُ حَاسِّةٍ ، ص : ٦٣ . لَعِلَّ الْغَافِقِيَّ سَمِعَ بِنَقْلِ الْغَنَائِمِ مَعَ الْجَيْشِ ،
عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ حَافِزاً لَهُ لِلِّدْدَافَعِ عَنْهَا ، بَعْدَ أَنْ صَارَاتِ كَثِيرَةٍ ، يَسْتَقْتَلُ أَصْحَابَهَا فِي
سَبِيلِ الْحَفَاظِ عَلَيْهَا ، وَلَكِنَّ الْجَنْدَ أَخْطَلُوا عَنْهَا دَائِغَوْا عَنْهَا وَحَرَصُوا عَلَيْهَا ، أَكْثَرُ
مِنْ دَافِعَهُمْ عَنِ النَّصْرِ وَحَرَصُهُمْ عَلَيْهِ .

الرق والضرائب المالية الباهظة ، الى الحرية والعدالة والطمانينة
على أرواحهم وأموالهم ٠٠

★ موازين القوى :

١ - عدد جيش الفرنجة أكبر من جيش المسلمين : بينما كان الفرنجة سيلًا من الجندي المتدقق ، لم يكن الجيش المسلم يزيد عن سبعين ألف مسلم في أصح الروايات ، وقد يصل إلى مائة ألف في روايات أخرى ، كان جلهم من البربر ، لأن كثيرين من العرب الأفريقيين والأندلس ، كانوا إذ ذاك في شغل بما انصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزراعة من ناحية أخرى ، وهذا لا يعني عدم وجود أعداد من العرب مع الغافقي ، فقد كان معه معظم اليمنيين لأنه يعني ، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم سرقسطة كانوا يمنية ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية جبال البرانس وما يليها^(١) .

٢ - موقف الفرنجة الاستراتيجي أجود وأفضل ، وبخاصة معرفتهم للموضع ، وأفتقهم للتحرك فيها ، ومعرفة دروب المنطقة ، مع قدرة على القتال في جو شات مطير ، تعودته جسومهم ، وأرض موطئها خيولهم .

٣ - الفرنجة مددهم - البشري والتمويني - قريب ، بينما المسلمين على بعد يجاوز ألف كيلو متر عن عاصمة الأندلس ، كما أنهم بعيدون مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الأموية ، ويكتفي أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق وجبال البرانس ونهر اللوار ، ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي غاليا كانت تقوم في الواقع بمعامرة أقرب إلى قصص

(١) نهر الأندلس ، ص : ٢٦٢ .

الاساطير منها الى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على امدادات من الجندي ، أو العتاد من مركز الخلافة . ولا من عامل الأندلس في قربة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة ، بل تفرقوا في نواحي الأندلس ، وعمل بعضهم بالزراعة ، فكان الوالي لا يستطيع استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات التي حاربها الإسلام قد توزعتهم ، وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بني عصبيته^(١) .

ومن آن النقطة الأخيرة لم يكن لها أثراً كبيراً في تكوين جيش الغافقي ، لأن الغافقي كان محبوباً لبعده عن هذه العصبية ، بسبب إيمانه وفهمه السليم لمبادىء الدين الحنيف ، غير أن أثراً هاماً ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق الجيش ، واختلف فيما بينه اختلافاً كبيراً ، أدى الى انسحاب المسلمين جملة ، ولو أنهم كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد استشهاد قائهم الى أقرب مركز لهم ، ليستجعوا قواتهم ، ويضموا صفوفهم من جديد ، كما فعلوا بعد المزائم التي جرت عليهم في افريقيا .

٤- الغائم التي حلها الجيش الإسلامي :

بالغت المراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون ، ولكن الحكم المنطقى السليم ، أن المسلمين حملوا بعض الغائم ، ولو أحسنوا لبعضوا نفراً منهم ليودعها « أربونة » أو « برشلونة » ، حتى يطمئنوا عليها ، وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، وينتهي اشتغال فكرهم بها ، ولكنهم حرصوا عليها

(١) فجر الأندلس ، ص: ٣٦٨ - ٣٦٩ .

أكثر من حرصهم على النصر ، وانقلب الغائم الى ثقل يرهقهم ، أضعف حركتهم ، فكانت الغائم سبب هزيمتهم ، لأن عدوهم — وقد استشعر هذا الحرص منهم — عرف كيف يستغله لصالحه ، فكان السبب القريب المباشر للهزيمة .

ورفض أحد المؤرخين المعاصرين ، بداعم من غيرته على الاسلام ، أن يجعل الغائم سبب الهزيمة المباشر ، وقال : كيف يحمل الجيش الاسلامي هذه الغائم الثقيلة المعققة ، وهو أمر لم تأله منه في حملاته السابقة في الارض الكبيرة ، وهو يعلم مقدماً أنه ذاهب للقاء حاسم يتبين فيه نشر الاسلام واعلاء كلمة الله في تلك البقاع ، ولو حدث اجتماع مثل هذه الغائم لأودعها مدننا سبق له فتحها ، فكيف يجتمع ذلك له وقد مر في فتوحه — قبل هذه الحملة — في أراضٍ فقيرة وأهلها معدمون ، في حين لم نسمع أو تألف له ذلك الاهتمام والاسلوب في عمليات جهاده — وهي كثيرة — في الارض الكبيرة قبل الغافقي^(١) ؟

ونحن نرى أن الخطأ أو الخلل إن وقع يجب أن يُذكَر كما هو للعظة والعبرة ، فخلل بلاط الشهداء هو خلل أحَد يُتكرر في سهول « تور — بواتييه » ، وهل يجرؤ مؤرخ أن ينفي مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ ، ونزو لهم لجمع الغائم في أحَد ؟

أما مرورهم في أراضٍ فقيرة الثروة ، وأهلها معدمون نتيجة لفقر أرضهم ، فهذا خطأ جغرافي ، فجنوب فرنسة من الأرضي الخصبة ، خصوصاً على ضفاف نهر الكاردون وفروع نهر الوار ، ومعروف أن مدن المنطقة غنية ببنفائسها !

(١) التاريخ الاندلسي ، ص : ١٩٨ - ١٩٩ .

الفِرْجَةُ

★ جنود اجلاف يحاربون شبه عراة ،
يتشعون بجلود الحيوانات المفترسة ، يرسمون
للوحوشية البدائية صورا مزعجة حمرا .

الفرنجة : شعبية من أولئك البربر الذين غزوا روما، وتقاسموا تراثها ، وحلوا في ألمانيا وفرنسا . وتعني كلمة « الفرنجة » الحر، وربما كان هذا الوصف يدل على الأقوام التي كانت تزعزع إلى الاستقلال عن سلطة روما ، والخروج عن طاعتها .

حكم منهم البيت الميروفنجي من سنه : « ٤٨١ م و حتى ٧١٦ م » ، وكان الحكام الميروفنجيون في آخر حياتهم كما وصفهم المؤرخ أينهارت : إنه لم يكن للملك شيء في المملكة سوى اسمه ، وذوائب شعره المرخاة ، ولحيته الطويلة ، حتى إذا جلس الواحد منهم على عرشه ، أخذ يلهمو بادارة شؤون الدولة لمهو الصبية ، فيستقبل الرسل الواقدين عليه من مختلف المالك ، ويكلمهم بكلمات يتلقنها ليتفوه بها صاغراً مأموراً ، ولم يكن للملك ما يصح أن يدعيه لنفسه سوى ضيعة صغيرة فيها مسكنه الضئيل حجمه ، وحاشيته القليل عددها ، فإذا اقتضى الأمر سفراً ، ركب عربة مثل عربات المزارعين من أهل الريف ، تجرها الأبقار ، ويسوّقها فلاح من الفلاحين ، وإذا جاء إلى القصر ، أو ذهب إلى الاجتماع السنوي العام ، سار موكبه في هذه الهيئة ، على حين أصبح رئيس البلاط مسيطرًا في شؤون الادارة والحكم ، مهيمناً على جميع المسائل السياسية الداخلية منها والخارجية^(١) .

(١) تاريخ أوربة العصر الوسطى ، تأليف : هـ ١٠١ فيشر ، الطبعة الثالثة ،
دار المعارف بمصر ، صفحه : ٧٠ .

لقد أحجم الفرنجة عن التخلص من البيت المiroفتحي ، لظنهم أنهم مقدسون ، ولا جناح عليهم مما ينغمرون فيه من المكرات ، فهم منحدرون من مiroفتحوس ، الذي يرجع أصله إلى إله البحر العظيم ، حسبما ورد في أغاني الفرنجة القديمة !! إن حالة من القدسية حاطت تلك الأسرة الفرنجية زمنا طويلا قبل ظهور المسيحية بينهم .

ثم بدت في الأفق الأسرة العجرمانية الكارولنجية ، وموطئها « استراسيا » — بلجيكا حاليا — ، وأهم شخصيات هذه الأسرة « بين » و « دوق أرنوف » ، ثم ما لبث بين أن أصبح رئيسا للبلاط ، أو محافظ القصر ، سنة ٦٢٢م، فزوج ابنته لابن أرنوف، فكان من نتيجة المصاهرة : « بين الثاني »^(١) ، الذي تولى رئاسة البلاط في اوستراسيا « بلجيكا » سنة ٦٨١م ، وهذا هو أبو شارل مارتل أو « قارلة » والجد الأكبر للأمبراطور شارلمان ، وشارل هذا اتَّخذه الألمان والفرنسيون بطلاً قومياً ، دون أن يكون في الحقيقة ألمانياً أو فرنسيًا ، فهو اوستراسي جرماني لحماً ودماً .

انزعجت أوربة ازعاجاً صارخاً لتقديم الجيوش الإسلامية ، وفرز زعماء المسيحية ، فأرسلوا صيحاتهم الصليبية في آفاق أوربة، وبذلوا أقصى ما يقدرون عليه لإشعال نار الكراهية للإسلام ، وتأكيد العداوة لرجاله ، وكان ملك الفرنجة ضعيفاً عاجزاً كما أسلفنا ، بينما يتولى حاكم القصر « شارل مارتل ، أو قارلة » قيادة أمره، فتجمعت حوله الصليبيون، وقدموه قائداً للنصرانية^(٢) .

(١) بيعا ابنة بين تزوجت انسجيزول ، فكان بين الثاني ابو قارلة ، شارل مارتل .

(٢) « مع الابطال » ، د. محمد رجب بيومي ، ص : ٨٩ .

شارل مارتل هذا ، أو شارل المطرقة ، أو قارلة ، تولى الحكم من دون الملوك الميرونجيين ستة وعشرين سنة ، وقال لقب المطرقة لشدة ما أفلز بالكنيسة الكاثوليكية في غاليا من صارم الضربات التي استلزمها فساد رجال الدين في عصره ، على أن بعض السر فيما استقام له من الفتوح ، إنما يرجع إلى جنوده الفارعين من الأوستراسيين الذين لم تفسدهم حياة المدن .

ولما بلغ شارل مارتل نياً قدوم الجيش الإسلامي اتخذ الأهة ، فلما قدم أودو حاكم دوقية بردا « بوردو » يستغيث ، لبى شارل النداء^(١) ، وأسرع لقاء المسلمين بنفس مشربة للفطر ، وجنود متطلعة للقتال .

ولم يكتف شارل مارتل بما لديه من الفرجة في غاليا ، بل بعث يستقدم جنداً من حدود الراين . . . فآتاهه نجادات من جنود أحلاف أقوياء ، يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد ، يتضجرون بجلود الذئاب والنمور ، وتنسلل شعورهم الجعدة فوق أكتافهم العارية ، يرسمون للوحشية البدائية صوراً مزعجة حمراء .

لقد اجتمع لشارل مارتل بذلك جيش كثيف ، قادر على الثبات والمنازلة ، ضاقت بجموعه الكثيفة سهول فرنسة ، فتقدم إلى شمال بواتييه في اتجاه تور . وفي تور التقى جيشان يختلفان عدداً وعدداً ، ولغة ودين ، وهدفاً وحضارة .

(١) استغاث أودو بخصمه شارل مفضلاً أن يحتاج الفرنجة أملاكه ، على أن ينتزعها منه المسلمين ، ولبى شارل النداء ، لا حباً بأودو ، ولكن طمعاً في الاستيلاء على أراضيه ، وبالفعل فقد استولى عليها بعد المعركة ، كما لبى شارل خوفاً من غزو المسلمين لبلاده ، وقد باتوا على مقربة منها .

المعركة

بلاط الشهداء

★ قال رينو : « إنه بلغت حماسة المسلمين في تلك الغزوة ، أن بعض المؤرخين شبّههم بربع صرر تقطّع كل ما جاء أمامها ، أو بسيف ماض يقطع كل ما يصادفه » .

موقع المعركة :

أصح الأقوال ان المعركة كانت على مقربة من طريق روماني يصل شاتلرو Chatellerault بواتييه ، على مسافة نحو عشرين كيلو مترا من بواتييه ، في الموضع الذي يسمى اليوم : Moussais — la Bataille في الحفريات التي تمت حديثا في الموقع المذكور⁽¹⁾ .
وتسمى المعركة بالأسماء التالية : البلاط ، بلاط الشهداء ، تور ، بواتييه .

(1) ويستدل على ذلك من الآثار المحفوظة في دير « مواساك » أيضا .

وبلاط هنا لا تعني الطريق المبلط ، لكن المراد بلفظ « البلاط » في الأندلس « القصر » ، أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون : « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » ، و « بلاط يوسف » ٠ ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ٠

فبلاط الشهداء معناها : « قصر الشهداء » ، مما يفيد أن مكان الموقعة كان بجوار قصر ، أو حصن كبير ، ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة^(١) ٠

وخلاصة القول : إن المعركة حدثت قرب تور ، وانتهت قرب بواتيه ٠

* * *

قلما ذكر التاريخ معركة لها ما بعدها مثل هذه المعركة ، فكان المسيحيون من جهة يذبون عن دياتهم وأوضاعهم وأملاكهم وأنفسهم . وكان المسلمون من جهة ثانية على اعتقاد راسخ أنهم يقاتلون في سبيل الله ، لنشر عقيدة ، ونشر إخاء ومساواة ، لتعلم رسالة التوحيد أوربة كلها ، خلا من كان منهم مهتماً بحفظ الغنائم التي في أيديهم ، وخوفهم عليها من الضياع ، ولم تكن الغنيمة هدفاً للجميع ، لو كان الهدف غنيمة فحسب ، لعادوا بما اثقلوا به قبل بواتيه ، وبخاصة أنهم عرفوا أن شارل مارتل قد جمع جموعه وألب كل أوربة عليهم ، فالهدف ليس غنيمة وقد تحققت ، بل فتح بمعناه الكامل ٠

(١) فخر الأندلس ، ص : ٢٧١ ٠

التقى الجمعان في ١٢ أو ١٣ شرين الاول «اكتوبر» سنة ٧٣٢ م ، أواخر شaban سنة ١١٤ هـ رابط كل منها أمام الآخر مدة ثانية أيام ، وكان المسلمون هم الذين بدؤوا القتال ، وكان الفرنجة قادمين من حروب ابتسם لهم فيها النصر ، فكانت حماستهم تغلي مراجلها ، ويزيد فيهم وجود شارل مارتل ، الذي كلما ظهرت ثلاثة خف وسدتها بنفسه^(١) ، حماسة وعزيمة .

هاجم المسلمون بخفة حركاتهم على سروات الخيل هجمات شديدة ، حاولوا بها خرق صفوف الفرنجة ، غير أنهم كانوا يجدون أمامهم صفوفاً أشبه بالجدران في ثباتها ، فكانت تتكسر عليها حيلات المسلمين .

استمر القتال أول يوم طول النهار ، ولم يحجز بين المسلمين والفرنجة سوى الظلام ، وفي اليوم التالي تجدد القتال ، ورخصت النفوس في سوق المنيا ، وحمل المسلمون حيلات مستحبة ، إذ لم يكونوا يتظرون من الفرنجة مثل هذا الثبات ، ولكنهم لم ينالوا منهم وطراً . وبينما كانوا يضاغعون حملاتهم ، إذ أغارت فرقة من الفرنجة على معسكر المسلمين ، الذي فيه متاعهم .

ولخص الدكتور حسين مؤنس المعركة بما يلى^(٢) :

تدل التفاصيل التي لدينا على أن كلا من الفريقين كان يحس

(١) من خطط خالد بن الوليد في معاركه ، فقد كان لخالد كتبية سريعة المعركة يقودها بنفسه دائمًا ، فكلما حدث خرق سده ، وأينما وقع ضعف أو خلل قواه .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٤ .

خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتتبk الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ، ظلا خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتباكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون في اختراق خطوط العرب — المسلمين — يومين متتالين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد ، وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحراب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتاً فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان — قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص — أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم ، ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة ، فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم ، وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فربيع الجندي الإسلامي المحارب ، وخشي الكثيرون من أفراده أن يستولي عليهما هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها ، وهنا اضطربت صفوف المسلمين ، واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن العافقي جهده أن يثبت جنده ، ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهمم على الغنائم فلم يوفق ، وأصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيش المسلمين ٠٠

وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فاتهزوا فرصة الظلام ، وسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين

من تشرين الأول « أكتوبر » سنة ٧٣٢ م ، أوائل شهر رمضان
سنة ١١٤ هـ .

وحيثما أسفر الصبح نهض الفرنجة ، فلم يجدوا من المسلمين أحدا ، فتقصدوا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن في الأمر خدعة ، وترىوا قبل أن يجتاحوا العسكر وينتهوا مافيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، إما لأنهم خافوا أن يكون العرب – المسلمين – قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركا ، أو لأن « شارل مارتل » تبين مانزل بال المسلمين ، فرأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

اندفع المسلمين في تراجعهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة ، وحيثما أحسوا أن أحدا من النصارى لا يتبعهم تمهلو في سيرهم ليستجتمعوا صفوفهم من جديد .

وذكرت المصادر النصرانية الأوربية : أن فرقاً من المسلمين شردت عن الجيش فووقيت في الأسر . وهذا خطأ واضح ، فكيف تؤسر فرق من الجيش المسلم ، ولم يلحق بهم عدوهم ؟ ما هذا إلا من تخيلات المؤرخين النصارى ، ليظهروا عظمة نصرهم واندحار المسلمين .



نتائج المعركة

﴿ لو انتصر العرب في تور - بواتيه،
لتلي القرآن وفسر في اكسفورد وكمبردج ﴾
جیبون

تعتبر معركة بلاط الشهداء معركة فاصلة في التاريخ العالمي ، فقد ترتب عليها تغيير مجرى التاريخ إلى حد كبير ، قال جیبون : « لو انتصر العرب في تور - بواتيه ، لتلي القرآن وفسر في اكسفورد وكمبردج » ٠

وقارن فشر في كتابه « أوربة في العصور الوسطى »^(١) بين انتصار الفرنجة على المسلمين ، وبين عدم استطاعة المسلمين فتح القسطنطينية عام ٧١٧/٧١٨ م ، فقال : لو انتصر المسلمون في فتح القسطنطينية ، لوجدوا بين مسيحيي شرق العثمانيين في القرن الخامس عشر ، لذلك يسهل تخيل نجاح المسلمين الديني قبل العثمانيين بسبعة قرون ، حين كانت الشعوب البلقانية والروسية لا تفقه من المسيحية إلا نزراً يسيراً ، ولا تدرى من النظم والمعتقدات الدينية إلا قليلاً ، على عكس غرب أوربة حيث اصطدم المسلمون بقوة

(١) أوربة في العصور الوسطى ، صفحه : ٦٦ - ٦٧

مسيحية منظمة أركانها على شيء كثير من تراث الامبراطورية الرومانية وجبروتها القديمة ، ولو تم لهم النصر فرضاً في تور ، لظل بينهم وبين فتح فرنسة وتحويلها الى الاسلام عقبات دونها عقبات .

وهذا كلام مرفوض تاريخياً ، لأن قسماً كبيراً من سكان أوربة تمنوا انتصار المسلمين في بواتييه ، ليعمهم الرفاه ، والخير ، والحرية . . . كما عم إسبانيا بعد الفتح الاسلامي .

ومن ناحية ثانية ، في رأينا هذه المقارنة خاطئة ، ومنبعها اعتزاز المؤرخين الأوروبيين الصليبيين بنتيجة بواتييه ، علماً أن الامبراطورية الرومانية الشرقية - خصوصاً بعد سبعة قرون - لم تقل حضارة وتنظيمياً عن نظيرتها الغربية ، وإن الامبراطورية الفارسية مثلاً لا تقل عنهما حضارة وتنظيمياً ، وهذا مشهور لها تاريخياً ، ومع ذلك كان الفتح الاسلامي خلاصاً لشعوبها ، وتقبّلته شعوبها ، ولم تر فيه مبدأ غريباً أجنبياً عنها ، وتحولت بعد الفتح الى الاسلام ، وما زالت تعتز به الى يومنا هذا ، والتاريخ أول من يعلم أن عدداً عظيماً من العلماء الذين قاموا لشرح وتفسير ونشر الاسلام وحضارته كانوا من الشعوب التي فتحت بلادهم .

هذا . . . ولم تحل صدمة بلاط الشهداء دون إعادة الكرة على فرنسة ، إذ أن المهمة وحدها لم تكن لتوقف العرب عند هذا الحد ، بل كانت لهم بعد كرّات ، اعقبها النصر والفتح - كما سُنّى في الفصل التالي - غير أن أهمية بلاط الشهداء ترجع الى

أن المسلمين ارتدوا عن فرنسة ، ولم يحاولوا اخضاعها اخضاعاً تماماً ، فضلاً عن أن الأحداث في هذا الجزء الغربي من العالم الإسلامي ارتبطت إلى حد كبير بالأحداث التي وقعت في مركز الخلافة في شرقية ٠

★ ومن تأثير المعركة :

١ - بالغ المسيحيون الأوروبيون في تقدير عدد القتلى من المسلمين ، حتى أوصلهم « فِيشَر » مثلًا إلى ٣٧٥ ألفاً ، نقلًا عن بولس الشماس^(١) ، وهذا بطبيعة الحال غير معقول ، فليس من اليسير وقتذاك حشد مثل هذا العدد ، أو ما يقاربه ، على كثرة الحروب في ذلك الوقت ، فضلاً عن صعوبة التموين والمواصلات ٠

والجيش الإسلامي انسحب عند حلول الظلام ، وصمد حتى عند خرق صفوفه واستشهاد قائد़ه العظيم عبد الرحمن الغافقي ، ونحن نعلم أن أشنع تمزيق للجيش ، وأكثر الدماء إراقة ، وأكثر الرجال أسرًا لا يقع حين التحام الصنوف في المعركة وجهاً لوجه ، وإنما حين الانسحاب الكيني ، حين الفوضى والذعر اللذين يصاحبان الفرار ٠

وذكرنا في المقدمة أن رهبة الافرنج من الجيش الإسلامي ظهرت في حذر الفرنجة واحجامتهم عن مطاردة المسلمين ، وتوجسهم من أن يكون انسحاب المسلمين خديعة حربية ، وخطة مبيتة ، فلو أن الجيش الإسلامي انتهى إلى أنقاض - كما تصور الروايات

(١) فشر ، تاريخ أوربة في العصور الوسطى ، صفحة : ٦٧ ٠

النصرانية الكنسية — لبادر الفرنجة الى مطاردته والاجهاز عليه ، لأن الاجهاز على المسلمين كان غاية شارل مارتل ، وذلك لئلا تقوم لهم قائمة في فرنسة « غاليا » ، ولكن جيش المسلمين كان ما يزال من القوة والكثرة الى حد يخيف العدو ويردّه ٠

٢ — أساء شارل مارتل الى أوربة ومستقبلها الحضاري ، وكرامة انسانيتها بدماغته عنها لما سبّعث حياتها ، فلو انتصر المسلمون لتخلّصت أوربة من ظلماتها وجهالتها واستبدادها ، وحطّت الاستغلال والاضطهاد ، كما كانت ستتحلّص من عار محاكم التفتيش السوداء فيما بعد^(١) ٠

فإن انتصار المسلمين في أية بقعة من هذا الكون ، يعني انتصار النور والمدنية والمساواة والحضارة ، وهذا ما كان سيكون في فرنسة وأوربة جماء ٠

واسياية — وهي أقرب بقعة من فرنسة — خير شاهد ، أما قال « ول ديورانت » في قصة الحضارة : « ولم تشهد بلاد الأندلس في تاريخها كله حكماً أكثر حزماً وعدالة وحرية مما شهدته في أيام فاتحها العرب^(٢) » !؟

٣ — اتهم المؤرخون الأوربيون المسلمين بتخرّب الكنائس والأديرة في فرنسة ، وهذه الشبهة قالها فيليب حتى في كتابه

(١) التاريخ الاندلسي ، للدكتور العجمي ، صفحة : ٢٠٢

(٢) راجع « الحضارة في الميزان » ، لارنولد تويني ، ص : ٨٦ : طبع « البابي الحلبي » ٠

« تاريخ العرب » صفحة ٥٩٥ - ٥٩٦ ، قال حتى : وقد تقدم عبد الرحمن الغافقي فقط سلسلة البرنه ٠٠ ثم أخذ بوردو عنوة ، وأشعل النار في كنائسها ، وبعد أن أحرق الباسيليكا « الكنيسة » القائمة خارج أسوار بواتييه ، زحف شمالاً حتى جوار مدينة توره

والثابت المعروف أن هدف المسلمين لم يكن حرق الكنائس والأديرة ، لأنه بمقارنة المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالياً في تلك الحقبة ، من فرنجة وقوط غربيين وشرقيين ، وبرجنديين ومن اليهم ، يتبيّن أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة ، وأبعدهم عن النهب والتخييب ٠

وقد أشارت النصوص التي وردت بالمراجع اللاتينية النصرانية إلى أن الذين خربوا هذه الأماكن وغيرها هم الوند والوندال ، فجاء مؤرخو الكنيسة وقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم « رينو » وغيره من المؤرخين المحدثين ، مما يدل على التعسف وعدم الدقة ، ولا سيما أن هذه التسميات بعينها ، أطلقت بعد ذلك على المجرمين الذين خرّبوا هذه التواحي زمن شارل مارتل وشارلمان ، ولو أن « رينو » عاد بعد ذلك وتشكّك في أن المسلمين هم الذين قاموا بهذا التخييب ٠ بل إن الفرنجة أنفسهم بقيادة عاملهم الأكبر شارل مارتل « قارلة » نهبو الكنائس ، واستولوا على كنوزها وخرّبواها فيما بعد وقعة تور - بواتييه^(١) ٠

(١) فجر الاندلس ، صفحة : ٢٥٨ - ٢٥٩ ٠

وللحقيقة ٠٠ فإن الكنائس والأديرة التي تهدّمت في فرنسة،
جرت أحداها وفق ما يلي :

أ - إن عدداً من الكنائس والأديرة ، وخصوصاً تلك التي
كانت مبنية خارج أسوار المدن ككنيسة مدينة تور مثلاً ، كانت
قللاً وخصوصاً في حقيقتها ، وكان الفرنجة يقاتلون المسلمين من
ورائها ، فليس بدعاً إذا هدم المسلمون بعضها في أثناء المعركة ٠

ب - كانت قبائل البرابرة العرمان لا تزال إلى ذلك الحين
على الوثنية ، وكان القتال محتدماً بينها وبين خصومها من الفرنجة
وسواهم ، فكانت تلك القبائل تعيث في غربي أوربة ، وتدمّر كل
شيء بما في ذلك الكنائس ٠

ح - كان شارل مارتل نفسه إذا هاجم أراضي خصومه
ومنافيه ، لا يتجوّب من تهديم الكنائس ، مع أنه كان مسيحيّاً ٠

د - وبما أن المؤرخين الأوّلين كانوا قساً
ورهاناً ، فقد افتروا على المسلمين ، واتهموهم بأنهم كانوا يهدمون
الكنائس والأديرة ، تأليباً للرأي العام المسيحي عليهم ، وكانوا
أيضاً ينسبون إليهم هدم الكنائس التي كانت قد تهدمت على يد
القبائل الوثنية ، وعلى يد شارل مارتل نفسه ٠

ه - وزعم مؤرخو الفرنجة أن المسلمين هاجسوا ديراً كان
فيه خمساً مائة راهب فذبحوهم جميعاً ، ولعمري إن خمساً مائة راهب
في دير - والأديرة في كل مكان معاقل وحصون طبيعية -
لا يستطيع جيش كبير أن يبلغ إليه ، ثم إن ذبح خمساً مائة راهب

لم يكن ميسوراً في زمن كانت الحرب فيه تعتمد على عدد المقاتلين، وعلى قوتهم البدنية ، ومناعة مراكيزهم في الدرجة الأولى^(١) . وعلى الاطلاق لم يُعرَف عن المسلمين خلال فتوحاتهم الواسعة شرقاً وغرباً ، أنهم اعتدوا على أديرة ورهبان . إلا في أرض غاليا ، فقد جاءت قرائع المؤرخين الصليبيين بذلك بعد بلاط الشهداء !!؟!
ووجدوا بسبب اتصارهم آذاناً صاغية .

٤ - أسرع والي افريقية عبيدة بن عبد الرحمن وأرسل مددأ بقيادة عبد الملك بن قطن الفهري ، خلفاً لعبد الرحمن الغافقي ، ثم بعث بخبر الفاجعة إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك^(٢) وما فعله ، فأمره الخليفة بعزو فرنسة وأخذها بالسيوف من كل جانب .

توجه عبد الملك بن قطن الفهري أول الأمر إلى نواحي شبابي الأندلس - كما سترى - وحصّن المعاقل التي ما زالت بأيدي المسلمين ، وكانت « سبتمانية » في ذلك الوقت في فوضى واضطراب بسبب الغروب المتأولية ، وانسحاب المسلمين في بلاط الشهداء ، وحاول بعض زعمائها اتهاز فرصة هذه الاضطرابات وتوزيع البلاد فيما بينهم ، بعد أن تلاشى أمر الدوق أودو ، وأدى ذلك إلى صراع بينهم ، مما جعل بعضهم يرتمي في أحضان المسلمين

(١) العرب والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ١٣٣ - ١٣٤ ، عن غزوات العرب ، ص : ٧٢ - ٧٦ - ٨٠ - ١٠٧ - ١١٠ .

(٢) الخليفة الأموي العاشر ، من : ١٠٥ إلى ١٢٥ هـ ، أو : ٧٤٢ - ٧٤٣ م .

خشية وقوعهم تحت سلطة شارل مارتل «قارلة» ، أو سلطة الدوق أودو^(١) .

٥ - بقي أهالي جنوب فرنسي يكرهون الفرنجة رغم اتصارهم على المسلمين ، لأن الفرنجة في نظرهم برابرة ، على حين أن أهالي جنوب فرنسي تشعوا بالحضارة الرومانية ، وكان هناك خلاف جوهري بين جنوب فرنسي وشمالها ، في بينما تسود الجنوب حضارة البحر المتوسط اللاتينية والبيزنطية ، تسود الصبغة الجرمانية شمالي فرنسي ، وهذا سر عدم ولاء بروفانس والمواطنين فيها للفرنجة الجerman ، وفضلاً عن ذلك ، فإن قارلة «شارل مارتل» عندما استرجع أملاك الكنائس والأديرة ، لم يردها على أهليها ، بل وزعها على رجاله ، وأكثر من ذلك ، لم تسلم كنوز الكنائس من نهب قارلة وجنوده ، مما أغضب القساوسة ، وعامة الناس .

ويفسر هذا تحالف «مورون» الذي اتخذ لقب : «دوق مرسيليا» مع المسلمين^(٢) ، وكذلك أسقف «أوكسيير» وغيرها . وعلى ذلك لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارلة نفسه لا يكتب اسمه لا باللاتينية ولا بغيرها^(٣) .

(١) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٢) وكان يتحكم في أغلب أقليم بروفانس .

(٣) فجر الاندلس ، ص : ٢٧٧ عن :

وكذلك كان شارلماן بعده ، و موقف قارلة من الكنائس وكنوزها يثبت أن موقفه موقف طاغية عسكري ، لا يفكر إلا في ملكه ، وأمواله ، وعوائمه ٠ وليس إلى الشك من سبيل في أن السبح بن مالك ، وعبد الرحمن الغافقي وأمثالهما من الفاتحين في فرنسة ، كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان يعرفه قارلة « شارل مارتل » ورجاله في مملكته ، لذلك كانت بواتيه صراعاً بين حضارة وجاهلية ، وبين نظام وفوضى ، وبين انسانية وهمجية ٠٠٠ على المدى البعيد ٠

وهذا ما فطن إليه المؤرخون الأوربيون ، قال أناتول فرانس:

« إن أهم تاريخ في حياة فرنسة هو معركة بواتيه حين هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتيه سنة ٧٣٢ م ، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية ٠ ٠ ٠ »

٦ — بعد بلاط الشهداء لم يفقد المسلمين جميع ما كان تحت أيديهم في فرنسة ، بل ظلت لهم أربونة وما حولها ، على أن الذي لا ريب فيه أن غزوة الغافقي هذه كانت آخر محاولة جدية قام بها المسلمون لغزو بلاد الفرنجة ٠

٧ — وانهزام المسلمين في بواتيه لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » ، وكانت الهزائم لا تعني في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المررة في شمال افريقيا ، أيام عقبة بن

نافع ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والاصرار على الفتح ، إنما الذي أوقف تقدم المسلمين هم المسلمون أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية ، وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ ، وتفاهة النظرة الجاهلية الى الحياة^(١) .

٨ - لو اتصر المسلمون في بلاط الشهداء ، لدخلوها فاتحين منظرين ، يريدون ادخالها في رحاب دولتهم وتحوilyها الى الاسلام ، ولو استقر لهم الامر في فرنسة لاتجه نظرهم الى ماوراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية ، فقد حالت بينها وبين الزوال حقا .

ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا اتتصروا في بلاط الشهداء وأقاموا حكم الاسلام هناك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الاندلس ، لأن الذي أعاد النصرانية في الاندلس إنما هو عجز المسلمين عن فتح فرنسة^(٢) .



(١) فجر الاندلس ، ص : ٣٠٥ .

(٢) فجر الاندلس ، ص : ٣٠٢ .

المسلمون في فرنسَة بعد بلاط السُّرْدَاء

★ خسر المسلمون بواتييه ، وبالتالي
خرروا أوربة كلها ، ولعل الله عز وجل أراد
أن يبقى اسلام أوربة الى القرن العشرين ،
حيث يشهد العالم اليوم دخول الاوربيين الوفا
في الاسلام ، ليعلم العرب أن الاسلام قوته
ذاتية خالدة ، وأنهم أقوىاء ، بالاسلام وحده .

تحالف « مورون » دوق مرسيليا مع يوسف بن عبد الرحمن
الفهري والي أربونة ، وزحفا معاً وعبروا نهر الرون ، واستوليا على
« آرل » عام 735 م ، ثم حاصرت الجيوش المتحالفة مدينة « فرتا » ،
وهي المعروفة اليوم باسم « سان ريمي » ، ثم تقدمت هذه الجيوش
واستولت على « أفينيون » وهي التي يسميها العرب : « صخرة
ابنيون » .

كما وصل المسلمون الى نهر « ديرانس » أحد فروع نهر
الرون ، وهو الذي تقع عليه مدينة افينيون ، عند نقطة اتصاله
بالرون ، وظل المسلمون يتحكمون في « بروفانس » أربع سنوات ،
لم يجرؤ خاللها أحد على منازعتهم السلطان فيها^(١) .

(١) المسلمين في أوربة ، ص : ١١٧ ، عن فجر الاندلس ، ص : ٢٧٨ ، والعرب
والاسلام في الحوض الغربي ، ص : ٦٨ .

وزحف شارل مارتل عام ٧٣٢ م ، واستولى على لودون « ليون » ، وكان المسلمين قد تخلوا عنها بعد بلاط الشهداء ، كما تخلوا عن برجندية ، وفي عام ٧٣٥ م ، توفي الدوق أودو ، ووافق شارل على أن يخلف « هينود » أحد أبناء الدوق أباه في منصب الدوقية ، مع تبعيته لشارل ، فأقسم هينود يمين الولاء له.

اطمأن عبد الملك بن قطن الفهري الى نجاح قائدته يوسف الفهري ، فانصرف الى تدعيم سلطان المسلمين في امارات جبل البرانس ، لكنه لم يوفق ، فولى الخليفة مكانه عقبة بن الحجاج السلولي عام ١١٦ هـ / ٧٣٤ م والسلولي كما وصفه ابن عذاري: « صاحب بأس ونجدة ونكأية للعدو وشدة » .

لقد كان السلولي من طراز الغافقي والسمح وعنبرة ، تقوى وجباً للجهاد ، وعدلاً وحسن سيرة ، حتى أن الروايات النصرانية تجتمع على الثناء عليه ، ويذكر عنه ابن عذاري^(١) أيضاً : أن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه الى الإسلام ، ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألف رجل ، مما يثبت لنا تاريخياً ، أن عقبة السلولي ، ومن عمل تحت امرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق ، حتى مع الأسرى – وكان مصيرهم القتل في قواعد العرب في تلك الأيام – فكيف بأهل المدن والأرياف ، أو الأديرة والكنائس ؟!

ومن حسن تصرف عقبة بن الحجاج السلولي ، أنه لما لم يجد

(١) البيان المغرب ، ج: ٢ ، ص: ٢٩ .

في تصرفات سلفه عبد الملك بن قطن الفهري ما يؤخذ عليه ، عهد إليه بقيادة الخيالة ، وأرسله إلى التغر ، وأخذ يعد العدة لعبور البرانس^(١) ، بعد أن اشتعل حماس المسلمين للثأر ل بلاط الشهداء ، فحصلوا ما بأيديهم من مدن غاليا ، وشحذوها بالمقاتلين ، ثم عبروا « دوفيني » شمال بروفانس ، وفتحوا « فالانس » على نهر الرون ، واستعادوا « ليون » و « برجنديا »^(٢) .

وجال عقبة السلولي في شرق فرنسة ، في الوجهة التي سلكها عنابة قبله ، ولكنه لم يصل إلى ما وصل إليه عنابة شمالا ، وسيستشهد عقبة قرب قرقشونة ، أحدى مدن سبتمانية في صفر ١٢٣ هـ^(٣) .

استعد شارل مارتل لاسترداد ليون وبروفانس وأفينيون ، التي تعتبر مفتاح الرون ، وقرر الاستيلاء على مرسيليا أيضا ، ليتخلص من تحكم المسلمين في جنوب فرنسة ، هذا التحكم الذي يؤدي إلى ضيق اقتصادي شديد لغرب أوربة .

استولى شارل مارتل عام ٧٣٧ م على أفينيون واقتتحما بعد أن استمات المسلمين في الدفاع عنها ، ثم حاصر أربونة معقل المسلمين في جنوب فرنسة ، وأميرها يومئذ « الهيثم » أو هرشة كما في بعض المصادر ، ولكنه عجز عن فتحها ، إذ أسرع عقبة السلولي ، وأرسل جيشاً عن طريق البحر لنجد أربونة ، غير أن

(١) ابن عبد الحكم ، ص : ٢٩٣ ، أرسلان ، غزوات العرب ، ص : ٩١-٩٣ .

(٢) تفع الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٢٠ .

(٣) تفع الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٠٥ .

شارل مارتل باعث هذه النجدة قبل أن تتهيأ للقتال ، وقضى عليها ، ومع ذلك صمدت أربونة للحصار ، مما اضطر شارل إلى الرحيل عنها ، بعد أن نازل المسلمين أياما ، أصيب له فيها رجال عديدون ، فتعذر عليه المقام ، وحامره ذعر وخوف من المسلمين ، فزال عنهم راحلا إلى بلده ، وقد نصب في وجه المسلمين حصونا على وادي رودنة ، شكلها بالرجال ، فصیرها ثغراً بين بلده والمسلمين^(١) .

و قبل أن يرحل شارل خرّب القلاب في « نيم » و « آجه » و « بيزبي » و « ماجلون » التي تعرف باسم « ثغر المسلمين » ، إذ كانت مرسى أمينا للسفن الإسلامية القادمة من الأندلس وأفريقيا ، فكان تخريبه لها بقصد حرمان المسلمين من الإمدادات التي تصل عن طريقها^(٢) .

* * *

وبينما تلك الأحداث تجري في حوض البحر المتوسط الغربي ، كانت الدعوة العباسية تشغل الخلافة الأموية في أواخر عهدها ، فلم تسكن الدولة الأموية من بذل العناية الواجبة بهذا القسم البعيد من العالم الإسلامي في الغرب ، وأصبح أمر الأندلس موكلولا لأمراء إفريقيا والأندلس وامكانياتهم ، وزاد الأمر خطورة ثورة الخوارج في إفريقيا عام ٧٤٠ م ، ثم ثورة البربر ضد العرب في إسبانيا وتكرارها عام ٧٤٧ ، ٧٤٠ م كل ذلك يفسر لنا

(١) نفح الطيب ، ج : ١ ، ص : ٢٧٤ .

(٢) فجر الأندلس ، صفحة : ٢٨١ ، ٢٨٤ .

ما تتابع من بعض الهزائم في فرنسيّة ، مما أثّر على الروح المعنويّة في مسلمي الأندلس .

وفي عام : ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م قامت الدولة العباسية ، وانتقلت الخلافة من دمشق إلى بغداد ، مما أدى إلى انقسام العالم الإسلامي .

كما حدث تغيير في العالم الغربي أيضًا ، فقد زالت الدولة الميروفنجية ، وقامت الدولة الكارولنجية ، وبعد وفاة قارلة « شارل مارتل » عام ٧٤١ م ، ورثه أبناءه الثلاثة : « كارلمازن ، وبين القصير ، وابن غير شرعي هو جريفيو » . وساعدت الظروف بين القصير ، فانفرد بالتفوز عام ٧٤٧ م بسبب دهائه ، وتأييده البابوية له ، فأنهى حكم الميروفنجيين .

وعلى ذلك .. فإن الوضع السياسي في منتصف القرن الثامن للميلاد ، النصف الأول من القرن الثاني للهجرة ، قد تبلور عن وجود ثلاث قوى عالمية ، هي :

- ١ - الامبراطورية الإسلامية ، الأمويون ثم العباسيون .
- ٢ - الامبراطورية البيزنطية ، في شرق أوروبا .
- ٣ - دولة الفرنجة الكارولنجية في غرب أوروبا .

وخلال هذه الظروف والأحوال المضطربة في العالم الإسلامي ، قام المسيحيون في مدن سبتمانيا بمساعدة الجيش الفرنسي ، فتمكن « أنسمندوس » القوطي من ارجاع المسلمين عن سبتمانيا ومدنها

عام ٧٥٢ م ، واستعاد أغلب المدن ، أما «أربونة» وهي آخر حصن قوي لل المسلمين ، فقد حاصرها الفرنجة ، وطال حصارها لمناعتها ، وتمكن المسلمون خلال الحصار من قتل القائد القوطي في كمين ، وبقيت أربونة ممتنعة على أعدائها^(١) .

ولما دخل عبد الرحمن الداخل الأندلس ، واستتب الأمر له عام ١٤٠ هـ / ٧٥٨ م ، التفت إلى مدينة أربونة المحاصرة ، وأرسل لها مددًا بقيادة الأمير سليمان الأموي ، ولكن عصابات المسيحيين المنتشرة في جبال البرانس قضت على هذا المدد .

وطال حصار أربونة ، فتأمر السكان المسيحيون بها ضد المسلمين ، وقرروا الارياع بهم ، فاتفقوا سرًا مع بين القصیر على تسليميه المدينة ، بشرط أن يتركهم أحرازاً في مدينتهم مستقبلاً ، وقاموا على الحامية الإسلامية في أربونة ، فأجهزوا عليها ، واقتحموا أبواب المدينة ، وفتحوها لجيوش الفرنجة ، فدخلتها سنة ٧٥٩ م ، وبذلك قضي على الحكومة الإسلامية في أربونة بعد أن ظلت بها نحو أربعين سنة : ٧٢١ - ٧٥٩ م^(٢) .

كما سقطت سبتة ملانيا بيد الفرنجة بعدها ، ولما توفي بين سنة ٧٦٨ م ، كانت جبال البرانس هي الحد الطبيعي بين مملكة الفرنجة وال المسلمين في الأندلس .

حكم الفرنجة بعد بين القصیر الأخوان شارلماں و کارلماں ،

(١) المسلمين في أوربة ، ص : ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) فجر الأندلس ، ص : ٢٩٠ ، وغزوات العرب «أرسلان» ، ص : ١١٢ - ١١٣ .

وبسوت كارلمازن عام ٧٧١ م ، حكم شارلمازن مملكة الفرنجة موحدة نحو ثلاثة وأربعين عاما ، وفي زمن شارلمازن قل العمل الإسلامي في فرنسة ، مع بقاء الطريق مفتوحا أمام الزحف الإسلامي ، وذلك من حصن سرقسطة الواقعة على نهر إيرة ، ومن المعاقل الإسلامية في برشلونة ووشقة^(١) .

★ لقد انصرفت جهود المسلمين كلها إلى الجنوب الشرقي لفرنسا وإلى حوض الرون ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطرلوا على أقطانية ، وأذروا هذه الشوكة من جنهم ، وثبتوا أقدامهم في جنوب فرنسة كلها ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداماً في المعارك التي هزموها فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة ، وعند تور - بواتيه مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً في الركن الغربي من جبال البرانس ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جيليون ذوو مهارة حرية وجلد ، لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرصة ، لا يكاد يمر بهم بعث إسلامي إلا هاجموه وخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غرة في المسلمين إلا انتهزوها ، وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من أهم الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة البرانس وما جاورها من الولايات الإسبانية الصرانية التي ستتواءء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية ، وربما جورثاً وغيرها . . ولو اهتم المسلمين

(١) وهذا ما ستراء في الجزء السابع من هذه السلسلة في موقعة باب الشيزري ، من رونسفال ، إن شاء الله .

باقم الاضطهاد في منطقة البرانس وثبتت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكن هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازلة فرنسة ، لأن غزوتهم في فرنسة لم تؤتهم أي ثمر على الاطلاق ، في حين كان تمهيد الأمر في نواحي البرانس تمهيداً تاماً يؤمن الأندلس الإسلامي ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في فرنسة وايطالية^(١) .

رحم الله الحر^٢ بن يوسف ، والسمح بن مالك ، وعنبسة بن سحيم ، وعبد الرحمن الغافقي ، وعبد الملك بن قطن ٠٠٠ وكل من استشهد من المجاهدين معهم ، لقد شعرو أنهم يقومون بفتح منظم لفرنسا ، هدفه ادخالها في رحاب الاسلام ، لا مجرد غارات سريعة بعيدة المدى هدفها غنية ، بل إن جهودهم كانت من أروع وأبهى الفتوح الاسلامية العربية ، وإن تصحياتهم كانت من أعلى ما صحي في فتوح الاسلام ، وكانت أعمالهم جديرة بالاستتاب في فرنسة وادخالها في الدين الحنيف ، لو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً منقساً ، ولو لا البعد الصحيح عن مركز الخلافة في دمشق ، حيث حرم الفتوح من توجيه الدولة ، ومن عونها السريع بالرجال . ولو لا أحداث المشرق الاسلامي التي انتهت بالقضاء على الامويين وقيام دولة بني العباس .



(١) فجر الأندلس ، ص : ٢٩٤ - ٢٩٥ وما بعدهما .

خاتمة خَرَافَةٌ مُؤْنَسَةٌ وَ شَارُلُ وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ»

★ « لنجعلها لكم تذكرة ، وتعيها اذن
واعية »

الحافقة : ١٢

★ في « روایات تاریخ الاسلام » قدّم جرجی زیدان روایة تحمل عنوان « شارل وعبد الرحمن ^(١) » ، والمتخصص الدارس لهذه الروایة ، يجدها روایة خیالية نسجها « جرجی » حول شخصیات لا وجود لها على مسرح الحیاة ، ومن حسن الطالع أنتی كتبت « بلاط الشهداء » كما جاءت في مصادرنا العربیة الاسلامیة ، ثم عدت وتحصّلت روایة « جرجی » عن شارل وعبد الرحمن ، فكانت الدراسة الثانية تتمّ للدراسة الأولى ، خرجت منها بأكثر من عشرين نقطة يمكن التحدث فيها ، مع أنتی لو قلت ليس في الروایة نقطة تستحق الكتابة فيها لأمکنني ذلك ، إذ أن الروایة خیالية لا أصل لها تاریخیا ، ومع ذلك ستناقش أولاً أصل فکرة الروایة التي اعتمد عليها « جرجی » ، وهي خرافۃ في أساسها ،

(١) سوء الطوية يظهر في عنوان الروایة « شارل وعبد الرحمن » ، لقد قدم « جرجی » ، شارل على عبد الرحمن ، ولا ندری لماذا ؟

ثم تعالج — بعد تجاوز هذه الخرافة — الطعنات والشبهات التي وجهها « جرجي » في روايته لتاريخنا وإسلامنا وأبطالنا ، وهذا من قبيل وضع الاصبع على مواطن الادانة ، لا مواطن الاتهام ٠

★ جعل « جرجي » أبطال روايته « شارل وعبد الرحمن » ، وهي جزء من سلسلة تحمل اسم « روايات تاريخ الاسلام » ، على النحو التالي ^(١) :

١ - عبد الرحمن الغافقي : قائد الجيوش الاسلامية ٠

٢ - هانىء ، ولا نسب أو والده ، وهو شخصية لا أصل لها ، اخترعها « جرجي » من فكره ، وأوكل إليه قيادة الفرسان المسلمين ٠

٣ - شارل « قارلة » : قائد جيوش الافرنج ، وحاكم أوراسيا ، وشارل في الرواية — كما أوضح « جرجي » — بطل من أبطال تاريخ الإسلام !

٤ - بسطام ، لا نسب له أيضاً ، جعله « جرجي » قائداً للبربر ، وهو أيضاً شخصية خيالية ، جعلها إلى جانب « هانىء » لمنافسته في جبه لفتاة يتبادل معها « لواعج الغرام » ٠

٥ - مريم : حبيبة هانىء ، تحمل وجه امرأة لا مثيل لجماله في العالم ، وفيها شجاعة الرجال ورقه النساء ٠

(١) نورد هنا ابطال كما رتبها « جرجي » في الصفحة الثانية من الرواية ، كما أوردها دون اضافة من قبلنا ، أو حذف احدهما ٠

٦ - سالمة «أجيلا» : والدة مريم ، زوجة رودريك «لذرير» ملك الإسبان ، وهي بطلة في رواية تحمل اسم «روايات تاريخ الإسلام» !

٧ - لمباجة : بنت الدوق أودو ، وزوجة لقائد بربري سابق ، وهي أصل وأساس في رواية تاريخ الإسلام !

٨ - أودو : حاكم أكتانيا ، ووالد لمباجة ، وكما هو ظاهر ، أودو أيضاً بطل من أبطال روايات تاريخ الإسلام !

★ وقبل مناقشة النقطة الأولى ، نذكر هنا المراجع التي ثبتت في الصفحة الثانية من الرواية ، والمتخصص لهذه المراجع يجدها تمويهاً كبيراً لكتاب الرواية ، وطلاع زائفاً أراد صبغ الخيال بالحقيقة التاريخية ، فان ذكر ابن الأثير مثلاً تراه عاد اليه مرة أو مرتين فقط ، خلال رواية صفحاتها ٣٤٣ صفحة^(١) . بينما يعود مرات عديدة إلى مراجع أجنبية ، معروفة أصحابها بالتعصب والصلبية ، والتعصب والصلبية يكفيان لمجانبة الحقيقة ، ولعدم الموضوعية في البحث ، فهو يعتمد على : رينو ، رومي ، دوزي ، جوبون ، فيسفوروس^(٢) .

كما تراه يعود إلى كتابه « تاريخ التمدن الإسلامي » لتشييت أقوال له ، كما في الصفحة : ٤٩٦ و ١٤ .

(١) الطبعة هنا ، هي طبعة : منشورات لجنة التاليف والترجمة والنشر - بيروت .

(٢) هذا لا يعني مطلقاً رفض كل مرجع أجنبى ، المرجع الاجنبى الذي يبحث في تاريخنا ، ان اعتد مؤلفه على مراجعتنا ، أو ان عرف بموضوعيته وبيعه عن الحقيقة ، ويبعده عن التنصب ، فلا يناس في اعتماده أبداً .

ومراجعه كما ذكرت في أول الرواية هي كالتالي :

١ - ابن الأثير ، وعاد اليه مرة واحدة فقط في صفحة : ٠٢٩٩

٢ - وذكر « جوبون » في مراجعه ، ولكنه لم يرجع اليه

على الاطلاق .

٣ - أبو الفداء ، لم يرجع إليه أبداً ، فلا يعثر القارئ على
أية اشارة لأبي الفداء وتاريخه « البداية والنهاية » .

٤ - رومي ، عاد إليه عشرة مرات في الصفحات : ١٤ ، ٨ ،

٠٣٣١ ، ٣٢٤ ، ٣٢٠ ، ٢٦٧ ، ١٦٤ ، ١١٠ ، ٦٠ ، ٣٧

٥ - رينو ، عاد اليه تسعة مرات في الصفحات : ١٠ ، ٨ ،

٠١٦٣ ، ١٥٤ ، ١٠٩ ، ٩٧ ، ٦٠ ، ٤٧ ، ٣٧

٦ - دوزي ، عاد اليه مرة واحدة فقط .

٧ - المقري ، وعاد وذكر « جرجي » مرجعاً آخر هو
« نفح الطيب » وفتح الطيب هو مؤلفه المقري ، فذكرهما وكأنهما
مرجعان منفصلان ، ومع ذلك عاد إلى « نفح الطيب » مرتين
فقط ، في صفحة : ٢٩٨٢ لخبر واحد ، ولذكر فكرة واحدة ، هي
عزم المسلمين على مواصلة الفتح في أوربة حتى يعودوا إلى الشام
من طريق القسطنطينية .

٨ - مختصر الدول ، لم يرجع إلى هذا الكتاب أبداً .

٩ - وكذلك لم يرجع إلى المرجع المدون فيسفوروس .

١٠ - كتاب «نهاية الأرب في قبائل العرب» ، عاد إليه مرة واحدة صفحة : ١١ فقط ، ليذكر أن عبد الرحمن الغافقي من قبيلة بني غافق ، وهي من القبائل اليمنية .

١١ - ثم عاد وذكر من المراجع «رينو ورومي» معاً ، وقد ذكر أعلاه .

١٢ - البيان والتبيين للجاحظ ، عاد إليه مرة واحدة صفحة ٤٤ فقط ، ليذكر أن في جملة جيش الإسلام جنداً من البربر ، وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والاقباط والأنباط وغيرهم ، ويتبعها بقول الجاحظ : «وفيهم من لا يزال على اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو المحوسيّة ، وإنما يظهرون بالاسلام» . وهذا كلام مرفوض كلام ، لأن المسلمين لا يتعاملون مطلقاً مع وثنية أو محوسيّة ، ولا يعترفون بهما في الأصل ، لأنهما ليستا من أهل الكتاب .

هذه هي كل المراجع التي عاد إليها «جريج» في تأليفه رواية «شارل وعبد الرحمن» الخيالية !!

* * *

أولاً ..

جعل «جريج» محور روايته على امرأة اسمها «لمباجة» ، وكان للمباجة هذه دور رئيسي في مسار الرواية وأحداثها ، وإذا عدنا إلى مصادرنا العربية الإسلامية نجدها تقول :

تزعم الكتب الافرنجية أن عثمان قد أسر في احدى غزواته ابنة أودو دوق أكويتانية ، وكانت رائعة الجمال ، فهام بها وتزوجها ، وتسمى تلك الكتب ابنة أودو أسماء مختلفة : نوميرانسة ، مينين ، لامباجية^(١) ، وكذلك تسمى تلك الكتب عثمان نفسه مونوزا ، أو مونوزا ، وتجعله من البربر .

وقالوا : فلما سكن عثمان الى زوجته ترك الغزو ، وأصبح ضلعاً مع صهره أودو ، ونذيراً إِلَيْه بتحرك الجيوش الإسلامية نحو بلاده ، فيقال : إن عبد الرحمن الغافقي أُرسَلَ الى عثمان من تغلب عليه فقتله ، وقيل بل قُتِلَ في حَدَثٍ آخر^(٢) ، « ومع أن الغالب على هذه الرواية أنها موضوعة من أساسها ، فإنها تدل على أن عبد الرحمن الغافقي لم يكن غافلاً عن بعث الظلائع قبل أن قام بهجومه الرئيسي^(٣) » .

لقد نسجت الروايات الأوربية الكنسية حول مونوسه أو هاما، ونحلت حولها تفصيلات لاستنتاج أمر، أو بناء أمور اتخذتها فيما بعد حقائق لا ريب فيها . وخلطت – كما جاء في تاريخ غزوات العرب – بين مونوسه وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، أحد ولادة الاندلس لمدة خمسة أشهر ، ابتدأت من شعبان سنة 110 هـ ، كل ذلك يجعل من مونوسة خرافه ، وعلى الخصوص اذا علمنا أن مونوسة اسم لارض ، ففي البيان المغرب لابن عذاري : إن والي

١) تاريخ غزوات العرب ، ص : ٨٧ .

٢) الاسلام في الحوضين الشرقي والغربي ، ص : ١٢٨ .

^{٣)} دولة الاسلام في الاندلس ، ج : ١ ، ص : ٨١ - ٨٥

الأندلس غزا منوسة^(١) ، وفي تاريخ ابن خلدون : غزا أرض مقوشة فافتتحها^(٢) .

ومما تقوله الرواية الأوربية الكنسية : أن رجلاً من الجنس البربرى اسمه « مونوس Munus » ترامت إلية من حدود ليبا « افريقية » أخبار الظلم القاسي الذى كان يعاينه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصانع الفرنجة ، وصاهر أودو من أقطانية ، وأخذ يعمل على إيداء العرب ، أعداء اسبانية ، ووتب بهم بالفعل ، وأصبح في حرب دائمة معهم ، ولكن أنصاره كانوا على خلاف متصل معه ، ولم ينهض عبد الرحمن الغافقي لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالي عشر حملات ، فنهض عبد الرحمن لمنوسة ، وتبعه ، ففر إلى خوانق الجبال ، وترجع مركزه ، وضيق المسلمين عليه الخناق وقتلواه ، وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة . وتفيض الرواية كما نسبتها وتخيلتها المراجع الأوربية الكنسية بعدها بذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن بحلفاء منوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية ، وكيف أنه أحرق « أنا باديوس » أسرقها بعد ذلك^(٣) .

ويمكن تقديم سؤال واحد نترك اجابته للقارىء ، ننهى به خرافة منوسة « لمباجة » ، لقد نصّت الرواية الأوربية الكنسية

(١) البيان المغرب ، ج : ٢ ، ص : ٢٨

(٢) تاريخ ابن خلدون ، ج : ٤ ، ص : ٢٥٨

(٣) القصة في « فجر الأنجلس » ص : ٢٥١ وما بعدها ، عن :

Isidoro Pocense : Chronicon C. 58

على أن المسلمين قبضوا على زوجة مونوسية ، وأرسلوها إلى بلاط الخليفة ، أي إلى دمشق ، على بعد آلاف الأميال عن الأندلس ، آلاف الأميال عن أرض فرنسيّة ، مسرح أحداث رواية « جرجي » ، فكيف رافقت مونوسية ، أي ملائكة في عرف « جرجي » الحملة مع الغافقي ، لتعمل دساً وتخريراً ووقيعة ، مع أنها في يلاط الخليفة بدمشق ، بحسب نص الرواية الأوروبية الكنسية ؟ !

ولنتفكّر بعدها بخاتمة الخيال ، بعد ذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن الغافقي بالنصارى « وكيف أنه أحرق أناباديوس أسقف شرطانية » ، فهل عُرِفَ المسلمين بشل هذه الأعمال على مرّ تارихهم الطويل الواسع ، هذا التاريخ الذي يشهد بعفوهم وبرحمتهم التي شملت الحيوان والنبات فضلاً عن الإنسان ^(١) ، حتى قال منصف من الأوربيين أنفسهم : « ما عرف التاريخ فاتحاً أرحم من العرب ^(٢) »

إنه التعصّب الكنسي ، وصلبيّة العصور الوسطى الأوروبية ، التي وقعت بالمتناقضات عندما نسجت من خيالها تاريخاً فاقترا ، ودَسَّت على تاريخنا عن قصد فامترت .

* * *

(١) جاء في وصية الصديق لجيش أسامة « .. ولا تغروا نخلا ولا تعرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بيرا الا مأكلة .. »

(٢) القول للمؤرخ : « غوستاف لوبون » في كتابه : « حضارة العرب » .

وهذه بعض ملاحظاتنا على الرواية «الزيadianة» ، التي نسجها خيال «جريجي» الخصب^(١) :

١— عاد «جريجي» كما في روايته «فتح الاندلس» ليدرس بين العرب والبربر ، وليتهم الأمراء العرب بعدم تفريطهم في جند العرب ، فقال عن موسى بن نصير : «فأنفذ حملة أكثرها ، من البربر ٠٠ ٠» وهذا كلام مرفوض ، فموسى بن نصير لم يميز بين العرب والبربر ، ولكن قلة العرب في شمال افريقيا عند الفتح مباشرة بالنسبة الى أهلها ، جعل قسماً كبيراً من الجند من البربر ، ودليل تقدير موسى لكل كفاءة بغض النظر عن جنس صاحبها أو عرقه ، تعين طارق بن زياد ، وهو ببربي ، قائداً لجند المسلمين وفيهم آلاف العرب ٠

ومن المضحك ، قول «جريجي» في صفحة ١٤ : «امتهان العرب يومئذ لغير العرب ، ولو كانوا مسلمين » ، فإذا فتشنا عن مرجع أو مصدر هذا الكلام لوجدناه «تاريخ التمدن الاسلامي» الذي هو من تأليف «جريجي» نفسه ، وأشار في نفس الصفحة على أن المرجع كتابه «تاريخ التمدن الاسلامي» ، «فجرجي» يورد أحكاماً ، وشواهد هذه الأحكام ، ومصادر هذه الدرر ، كتابه

(١) الملاحظات التي ندوتها هنا ليست كل ما يقال ، أو يكتب ، أو يعتقد به «جريجي» في روايته «شارل وعبد الرحمن» ، ستدون أهم النقاط ونترك الحديث المفصل الى كتابنا الذي نعده عن «جريجي» ورواياته ٠

الذى قدّمه قبل هذه الروايات « تاريخ التمدن الاسلامي » ، وقد كرر هذا في ثلاثة مواضع في الصفحات : ١٤ ، ٤٢ ، ٤٩ ٠

٢ - يخلط « جرجي » على عادته بين كلمة عرب ، وببر ، ومسلمين ، في كل صفحات الكتاب ، ومثال ذلك صفحة : ٧ ، قوله : « ولم يذهب من فكر العرب فتح أوربة » ، وكلمة « مسلمين » هنا أصح تاريخياً من كلمة « عرب » ، فالعرب ما فكرروا بتحرير أنفسهم من الفرس والرومان ، إلا بعد عقيدة ربانية غرست في نفوسهم فغيّرتهم ، ووحدت صفوهم ، وجمعتهم على قلب رجل واحد ، العرب ما أخذوا مكانتهم اللاقعة تحت الشمس ، إلا بعد أن أهلهم رسول الله ﷺ ، روحياً ، وفكرياً لفتح الدنيا ٠

٣ - في صفحة ٨ ، يركز « جرجي » على اغتصاب المسلمين للكنائس ، وجعل المرجع لهذا « رينو عن أيزيدور » ويستمر في ذلك إلى نهاية الرواية ، مع أنه يورد في الصفحات : ٣٩ ، ٣٤ ، ٦٨ ، ٤٣ ما ينافق هذا على لسان سالمة أم مريم ، ولقد ذكرنا في هذا الكتاب أنه إن كان المسلمين قد داهموا ديراً أو كنيسة في سهول فرنسة ، فذلك لا يقاب المقاومة المنطلقة منه ، فقد كانت بعض الأديرة والكنائس حصوناً للمقاومة ، واعترف « جرجي » بذلك في صفحة : ١٦٤ ٠

٤ - قال « جرجي » في صفحة ٩ : « وكان عبد الرحمن قد أدرك اختلال أمرهم ، أو جاءه البشير بذلك ، فعزم على فتح بلادهم » ، وهذا كلام مرفوض ، لأن الفتح الاسلامي خطوة مدرستة ذكرها « جرجي » أيضاً في صفحة ٦ : « وقد عزم على

مواصلة الفتح في بلاد أوربة حتى يعود الى الشام من طريق القسطنطينية » ، فالفتح قائم مخطط له ، ولو لم تختل أمورهم ، وقد كرر ذلك في صفحة : ١٩٦ ، وركّز على ما سماه « جشع المسلمين » صفحة : ٣٢٣ ٠

٥ - جعل « جرجي » في صفحة ١٣ فصلاً كاملاً عن : [الغنائم والسبايا] عند المسلمين ، وبدلاً من التصريح بأن الغنائم والسبايا إن وجدت ، هي معاملة بالمثل في عُرف ذلك العصر ، بدلاً من التصريح بهذا ، أخذ يلمس أنها هدف وغاية ، وذكر أن أمراء الأندلس (صفحة ٣٦) معظمهم من أهل المطامع ، وقد كرر ذلك صفحة : ١٤٧ ٠

٦ - وجعل « جرجي » من الشخصيات الرئيسية في الرواية فتاة اسمها « مريم » وعلى عادته في كل رواية له ، جعل منها مثلاً للجمال ، قال عنها : « فتاة لم ير الراؤون أجمل منها » صفحة ١٦ ، ناهيك عن كلمات الغرام في رواية تحمل شعار « تاريخ الاسلام ! » ، فلوعاج الغرام ، التي يكررها في كل رواية له ، وردت هنا على سبيل المثال في الصفحات : ٣٠ ، ٣٣٨ ، ٣٠٧ ، ٩٩ ، وقتل هواكه وردت في الصفحات : ٩٠ ، ٣٢٨ ، ١٠٢ ، تدون تاريخ الاسلام ، كما يكتبه « جرجي » :

— في صفحة ١٧ : « أما الفتاة^(١) فكانت واقفة بجانبها ، وعليها لباس أسود مثل لباسها ، وقد أسنن يدها الى كتف المرأة

(١) يصف هنا « مريم » عندما رأها هانئ ، وبمثل هذا الوصف يكتب تاريخ الاسلام !!!

٠٠ وهي مكشوفة الزندين الى الكوع ، وقد التف زندتها التفافاً
بديعاً ، وكانت طويلة القامة على اعتدال ورشاقة ، وقد بدت غضة ،
في محياتها الحياة والنشاط ، ويحس بها الرائي - أول الأمر - في
الخامسة والعشرين ، وهي في الحقيقة دون العشرين ، سمراء اللون ،
سوداء العينين ، كحلاً الجفون ، حادة البصر مع وداعه ورقة ٠٠
تدل وقوتها على الصحة والقوية معاً ، ويتجلّى فوق ذلك كله لطف
نسائي يسحر الألباب ، وكان ثوبها الأسود بسيطاً ، وقد انتفتح
الرداء من أعلى الصدر فبدا عنقها ، وفيه مظاهر الصحة والقوية
بامتلائه واستدارته ٠٠ ٠

- وفي صفحة ٢٣ : «ولكنه^(١) كان مشتعل الخاطر بشيء
لا يعرفه غير الذي يعانيه - وهو الحب - ومن غريب أمر الحب
أنه يقع على الناس وقوع السبات من حيث لا يعلمون ، وربما كان
الباعث على وقوعه نظرة واحدة ، فلا تكاد تلتقي العين بالعين
حتى تجيش العواطف ، وتتجاذب القلوب تجاذباً لا سبيل إلى
دفعه ، ولا يحدث ذلك عند كل نظرة ، ولا في كل انسان ، وإنما
هو تأثير بعض العيون على بعض القلوب ، فاذا تفاهمت العينان ،
استيقظ القلبان وتتجاذباً كأنهما كانوا على ميعاد ثم تاها ٠

- وفي الصفحة ٣٠ : «خشي «هانىء» أن يكون في حديث
الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها «مريم» وقد ازداد تعلقاً بها
بعدما لاحظه من رغبتها فيه ، وأحس أنها تجده جاً شديداً ، فاغتنم

(١) يعني هانئاً ، عندما (جاش في فؤاده من عوامل الغرام ، وما غشي بصيرته
من عواطف الشباب) عندما رأى مريم .

فرصة اشتغال الامير بالحديث مع المرأة ، ودنا من الفتاة وقد أراد
أن يسمع حديثها ويستطلع أمرها ، فقال صوته يدل على هياقه :
« ما اسمك يا فتاة ؟ » ، فأجابته بصوت دل على لوعة الحب ،
وبلسان عربي فصيح : « اسمي مريم » فأعجبته غنة صوتها ، وزاد
افتاته بها لغة في لسانها تنطق بها الراء غينا ، فكأنه سمعها تقول :
« اسمي مغيم » ٠

— في الصفحة ٣٢ : « ونظر (هانىء) الى مريم ، فرأى عينيها
الجذابتين وقد زادها التفكير والاطلاق هيبة ، فسبح الخالق لذلك
الصنع العجيب » ٠

— وفي الصفحة ٨٢ العجب العجاب في « روايات تاريخ الاسلام »:
« فأعجبه ذلك العتاب واستدل من ورائه على ماله من المنزلة ،
عند تلك الحورية ربة الجمال ، وقد كان يعلم أن بينه وبينها فارقاً
كبيراً ، ولكنه كان يطمع في حبها ٠٠ وكان يقنعه من ذلك الحب أن
يسمع مثل تلك العبارة ، فهو من يسمونهم « أذناب العشاق »
لأن العشاق ثلاثة : عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ
القلبين ، وعویشق يقنعه أن يقدم لعشوقته باقة من الأزهار أو عقداً
من الجوهر ، ويکفيه منها قبول هديته ولا مطعم له فيما وراء
ذلك ، و « ذنب العشاق » وهمه أن يخدم عشوقته خدمة ترقوها ،
كايصال كتاب ، أو ابتياع بعض حاجات الطعام أو نحو ذلك ٠

كل هذا في روايات تاريخ « الاسلام » فأين التاريخ ، وأين

الاسلام ٤١٤

— ويطول الحديث عن « لواجع الغرام » في صفحة ٣٣٨ ، ونكتفي بما تقدم ، وترك الشرح الوافي لكتابنا القادم إن شاء الله وهو « جرجي في الميزان » ٠

٧ — كرر « جرجي » كلمة « نهب » بحق المسلمين ، في الصفحات : ٢١ ، ٢٣ ، ٤٦ ، ٠٠٤٧ و في هذا ما يغني عن التعليق ٠

٨ — كما بالغ « جرجي » في اظهار البربر على أنهم يسعون إلى الغنيمة ليس غير ، قال في صفحة ٣٨ : « أكثرهم جاؤوا للنهب والسلب ، وخصوصا البرابرة ومن على شاكلتهم ، فهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح ، ولا يعرفون ما هو الاسلام ، لأنهم إنما اتّموا إلّي رغبة في الغنائم » ٠

وتراه يسمى البربر « البرابرة » في الصفحات : ٢٨ ، ٣٢٥ ، ٣٣١ ، ٣٣٦ و شتان بين المعينين ، بين قبائل تسكن الأطلس والمغرب الأقصى ، وبين معنى « البرابرة » التي أطلقت على القبائل الهمجية التي جاءت أوربة فدمّرتها ، وأبادت مدنًا وقرى ، وفتكّت بشعوب بأسرها ، وشمل أذاتها الانسان والحيوان والنبات ، حتى الجماد ممثلا في هدم الآثار الرومانية أينما حلوا ، فسُمِّيت هذه القبائل لهمجيتها وبدائيتها ووحشيتها « البرابرة » وهم قبائل : الهون والجرمان والفنادل ٠٠٠ فشتان بين المعينين !!

٩ — عبد الرحمن الغافقي ، البطل المسلم ، الملّتزم بسلامه ، والذي أوصل الاسلام الى قلب فرنسة ، جعل له « جرجي » في روایته « شارل عبد الرحمن » [خباء من النساء] صفحة ٥٠ ، وذلك بدلًا من اظهار مواهبه القيادية وتفانيه في نشر الاسلام ،

وهذا يعني نشر الاخاء والمساواة والحضارة الانسانية العالمية في كل معانيها ، كما جعله يهيم (في صفحة ٥٧) في حب فتاة ، وله قهر مانة مشرفة على خباء نسائه صفحة ٦٨ ، وكذلك صفحة ٧٤ ، حيث يجعل القهر مانة السيدة المتنفّذة ، تولي وتعزل حتى الخلفاء ، طبعاً دون ذكر أمثلة من التاريخ كعادته ٠

وفي الصفحتين ٧٤ و ٧٩ يجعل للامير هانىء خباء نساء أيضاً ، وهانىء هو الشخصية الثانية بعد الغافقي ، ثم يجعل لكل امير « خباءه وجواريه » في الصفحات : ٨٨ ، ٩٥ ، ١٠٤ ، ٠٢٦٥ وفي الصفحة : ٩٥ بالذات يجعل للقائد المسلم عبد الرحمن الغافقي [عشرات من النساء في خباءه] ، فهل هذه حقائق ؟

ومن منطلق الغيرة على هذا التاريخ المجيد ، والتراث الغالي نقول : احموا تاريخكم ، وسيجروا حوله بسياج متين ، فالعاشرون به كثیر ، والذين يهدفون الى تشویهه وراءهم قوى معادية لدينكم وتاريخكم وتزائكم وذاتيكم ٠٠٠

هل تسمح أمة من الأمم في هذه الدنيا ، ماضيا وحاضرا ، أن يقوم قلم ما – ومهما كان شأنه – بتشويه سيرة أبطالها ؟ فلماذا نحن بالذات هانت علينا أبطالنا ، حتى إننا كدنا نرى سيرتهم مشوهة ، بل صرنا نراها ممسوحة مفترى عليها ، مطموسة ملامحها الرائعة ، ثم لا نبالي !؟

تاريخ الاسلام وحضارته ، العامل الاول لشعور العزة والكرامة في أمتنا ، لشعور الفكر الموحد ، والعقيدة المثلثة التي فتحت نصف العالم في نصف قرن ، به سُدنا ، وبه عُرْفنا بمكانتنا

السامية بين الأمم ، فلصالح من يتم التشويه ، وجعل تاريخنا سيرة
جوار وغناهم وأخيبة وقهر مانات ؟؟

ألا فاحموا تاريخكم ، تحموا أمتكم من الضياع ٠

١٠ - يكرر « جرجي » في روايته العبارات التالية :

ظننت ، ودلتها قلبها ، قالت في نفسها ، أحس ، تذكر في
نفسه ، تصور ، فأسر في نفسه ، أضمرت ، لسان حالها يقول ،
تبادر إلى ذهنه ، خيل إليه ٠٠ كما في الصفحات : ٧٨ ، ٧٧ ، ٧٦
٠٠٣١٣ ، ٣١٢ ، ٢٣٣ ، ٢٢٧ ، ١٧٩ ، ١١٧ ، ١١١ ، ٩٩ ، ٩٨ ، ٩٦
وبسبب هذا الخيال الخصب ، والفكير الثاقب ، تراه يقرأ ويكتب
الأفكار ، وما يجول في تفوس الناس ، وما تشعر به قلوبهم ، لذلك
فإنه يكتب رسائل متبادلة بين عبد الرحمن الغافقي وشارل مارتل
لا أصل لها ٠

١١ - ذكر « جرجي » أن المسلمين أينما ساروا في فرنسة
« غاليا » ، وجدوا قرى وبيوتاً أهلها تركوها ، كما في صفحة ١١٢
والثابت تاريخياً أن المسلمين لم يؤذوا ، ولم يصيروا المدنيين بسوء
مطلقاً ، فهجر البيوت وترك القرى صورة عرفتها أوربة عند مجيء
الجرمان والهون والفندار ٠٠ ، أولئك الذين حصدوا كل شيء في
زحفهم ، أما المسلمون ، وباعتراف المؤرخين الإسبان مثلاً ، إن
بلادهم شهدت قمة مجدها ورقيها وتعلمتها وإنسانيتها عند الفتح
الإسلامي ، وكانت شعوب فرنسة تمني انتصار المسلمين ليصلوا
إلى ما وصلت إليه إسبانية من تقدم ٠

ولسوء طويّة « جرجي » ، فقد وصف المسلمين في صفحة ١١٣ ، بأنهم « ساروا كأنهم بحر يتلاطم بالأمواج » بينما الفرنجة « كثيرون » ، والثابت تاريخياً أن المسلمين كانوا سبعين ألفاً ، والفرنجة هم البحر المتلاطم بالأمواج ، فكأنه لا يريد التماس عذر لانسحاب المسلمين في بواتيه ، فهم بحر يتلاطم بالأمواج ، وعدوهم أقل منهم عدداً ، وذلك ليؤكد الفخر للفرنجة بالنصر ٠

١٢ - مسرح الرواية ، والقسم الأكبر من أحداثها في الأديرة ، ويكرر تقبيل يد الراهب للترثّك بهم ، ويدرك حقوقهم من الاحترام والتقديس ٠٠٠ كما في الصفحات : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦١ ، ٢٣٠ ، ٢٣١ صفحه ٣٢٦ ، وكأنه كتاب عادي ، لا علاقة للفاتحين به ، فقال « قرآن » هكذا ، لا كريم ولا عظيم ٠٠٠ ومتى ذكره ؟ ذكر القرآن الكريم قُبَيْل المعركة مباشرة ، لقد تثليت آياته ، ولم تغُر المسلمين شيئاً ، فلم يتتصروا في بواتيه ، وفي هذا ما فيه من الدس لتحقير شأن القرآن المجيد ، وإظهار عدم جدواه في المواقف الصعبة ٠

١٣ - يقول « جرجي » في صفحة ١٦٢ : « إن امرأة شاهدت في الدير شاباً مجنوناً « سكنته شيطان » ، فسألت عن قصته فقال لها رئيس الدير : « أعلمك يا ابتي أن هذا الشاب من جملة الأفرنج الذين تجندوا لمحاربة أولئك العرب ، حين بلغهم إقدامهم على فتح هذه البلاد ، وكانت له والدة لا يعرف من الأهل سواها ، ولا هي ترجو سواه ، فتركها في بيتها وسار إلى الحرب ، فاتفق في أثناء غيابه أن جاء المسلمين إلى ذلك البلد ، ونهبوا بيت المرأة ، وساقوها في

جملة السبايا الى قلعتهم في تلك المنطقة ، فلما عاد الشاب الى بلده وأخبروه بما حدث لأمه ، ساق جواده الى تلك القلعة ومعه جماعة من الرفاق ، فأطل على القلعة وكانت موصدة ، فأشرف عليه أحد المسلمين من فوق السور وسأله عن غرضه ، فقال له : أطلب والدتي فانها أسيرة عندكم ، فأجابوه : لا نرد لك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذي تركه ، وإنما نذهبها أمام عينيك ، فغضب — واسمه داتوس — لذلك غضبا شديدا ، وقال لهم : لا أعطيكم ، وافعلوا بوالدتي ما تشاءون ، قال ذلك وهو يظن أنهم يخوفونه بتهديده بقتلها ، وانهم لا ينونون اعدامها فعلا ، ولكنه مالبث أن رآهم احتزوا رأسها ورموه إلى وهو يقولون : هذه والدتك فإليك هي ، فلما رأى رأس والدته صعد الدم الى رأسه ، وغاب عن رشه ، ولما عجز عن الوصول الى القاتلين لتحصنهم وراء الأسوار ، جعل يلطم وجهه ويصفق وي بكى ويركض فرسه يمينا وشمالا كالجنون ، ثم انقطع عن أصحابه وأقام عندنا » .

هذا ما أراده « جرجي » على لسان رئيس الدير ، فالحمد لله حصص الحق ، إنها فريدة ودسيسة ينفيها ، ويدحضها أخلاق المسلمين الفاتحين بالرحمة والانسانية^(١) .

والملاحظ لمسار القصة يلمس كذبها بقرينة ودليل :

(١) قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه لجيش اسامة بن زيد : لا تخونوا ولا تغلوا ، ولا تفدروا ولا تشنوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيءغا كبيرا ، ولا امرأة هذه هي أخلاق الفاتحين المسلمين ، وهذا من دستور معاملتهم للشعوب ، لا كما يدعي ويتخيل « جرجي » على لسان راهبه رئيس الدير .

١ - المسلمين جاءوا الى بلد ، ما اسمها ؟ أين تقع ؟ بلد
مجهمة ؟

٢ - كلمة « نهوا » تدل على نفسية المؤلف العاقدة على
ال المسلمين .

٣ - عبارة « تلك المنطقة » تدل على الضياع ، ما اسم
المنطقة ؟ لا يدرى أحد حتى ولا « جرجي » ولا رئيس الدير .

٤ - المسلمين في « قلعة » خلف أسوارها ، هل للMuslimين
قلاء أو حصون قرب بواتيه في أرض فرنسة ؟

٥ - وصل الجندي الافرنجي فأشرف عليه - من وراء
الجدر - جندي مسلم ، كيف أحسن به ، ومن أعلم بقدومه ؟
وبأي لغة تفاهما ؟ بالعربية ؟ أم بالفرنسية ؟ أم بواسطة ترجمان ؟!

٦ - الجندي المسلم يطمع بالجواب ، يطمع بغيرية ، هذه
نذالة ، بينما الجندي الافرنجي شهم لا يعطي جوابه ، فعليه
سيحارب المسلمين ، وما الذي يمنع المسلمين من أن يخرجوا إليه ،
وهو في قلة مع رفاته ليأخذوا الجواب وتبقى الأم أيضا معهم ؟!

٧ - أم الجندي الافرنجي سبية بحسب قول « جرجي »
على لسان « رئيس الدير » موجودة مع المسلمين ، لماذا يذبحونها
إن لم يطعمون ابنها الجواب ، ماذا خسروا بعدم اعطائهم الجواب
لتذبح وتعاقب !

٨ - اظهرت الدسيسة أن المسلمين أهل ظلم وعسف
ووحشية ، واظهرت الجندي الافرنجي بالجرأة والحمية والغضب
للحق ، والهياج للعدالة ، فهل هذا صحيح ؟

هذه ملاحظات ثمان ، تغنينا عن التعليق ، ففي النفس ألم ،
وفي القلب غصة على تاريخنا المجيد كيف يشوه ، وعلى رجالاته
كيف يُسأء إليهم أمام أعيننا ونحن غير عابئين أو مبالين !

١٤ - من الخطوط العامة للرواية :

هانىء (العربي) قائد الفرسان - وهو شخصية خيالية -
أحب ربة الحسن والجمال والأنوثة مريم ، أو « معيم » بحسب
قول « جرجي » ، نافسه على حبها بسطام (البربري) - وهو
شخصية خيالية أيضاً - فقتل مريم بسطاماً لتنعم بحبها هانىء
(العربي) ، ثم ينافسه في حبها القائد العظيم عبد الرحمن الغافقي !!
كما في الصفحات : ١٠٦ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٤٠ ، ١٤٣

٠٠

ويجعل (جرجي) لمباجة : [أدرى بجيشه المسلمين من عبد
الرحمن] هكذا أرادها ، وهي نصرانية تكيد للمسلمين ، وهي
عندهم في معسكرهم لا يدرؤن طويتها ، كما في الصفحات : ٥١ ،
٥٢ ، ٦٣ ، ٨٤ ، ٢٢٣ ، ٢٦٤ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

لقد جعل « جرجي » التنافس بين العرب والبربر يمثله التنافس
بين هانىء وبسطام ، ثم جعل الغافقي يخنق قلبه لفتاة ، فتشغله عن
أمور الفتح والجيش كله ٠

وكل هذا مغالطات غنية عن التعليق ٠

١٥ - يقول « جرجي » في نهاية الرواية ، فـ " الجيش المسلم
من المعركة ، في بينما الشخصيتان الخياليتان هانىء ومريم لم يفرا ،
لا يليق بهما ذلك ، فقررها الموت معًا طواعية : « الموت معك حياة

يا حبيبي ٠٠ يا حبيبي ٠٠ آه ما آلذ هذا اللفظ ، وكم كنت أتلذذ بتكراره في خلوتي ، وأتحسر على سماعه من فمك » ، (صفحة: ٣٤٢) .
لقد عزما على النزول في البحر ليفرقوا ، ويصبحا طعاماً للأسماك ، ولكن هاتئما فرغت مريم من قولها أشار بعينيه إلى جسمها الغض ، وقال لها : « أليس غبناً أن تذهب هذه الأعضاء طعاماً للأسماك البحر ؟ فقطعت كلامه قائلة : ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بني الإنسان ٠٠ عجل ياهانىء قبل أن يغلب علينا حب البقاء ٠٠ » ، [صفحة : ٣٤٣] .
« فمد يديه ومدت يديها ، وتخاطرا من جانب ، وتماسكاً من الجانب الآخر ٠٠ ومشيا على الرمل حتى غرفت أقدامهما في الماء ، فاحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الأخمصين ، وكانا كلما انغمرا في الماء ازدادا تعانقاً وازدادا تجاذباً حتى أصبحا جسماً واحداً ، وغطسا في الماء وكل منها يتلذذ بذكر اسم الآخر ، وبعد دقيقة بدا بعض الرأسين ، والشعر سابع على سطح الماء ، ثم غطسا إلى قاع النهر ، ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله ٠٠ » ، [صفحة: ٣٤٣] .
غريب عجيب ٠٠ شخصان غرقا إلى قاع النهر « ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله » ؟! ومع قناعتنا بکذب الرواية كلها ، القناعة الكاملة ، فنحن نناقش ما ورد كرواية بين يدي الناس ، فنقول تعليقاً على نهاية وختام الرواية كما جعلها « جرجي » :
كل قارئ مهما كانت ثقافته يعلم مصيرهما ، « غطسا إلى قاع النهر » ما هو الاختلال الثاني غير الموت بعد الغرق والاتسحار ؟!
أبمثل هذه الغراميات والترهات يكتب تاريخ الاسلام ؟!

في حادثة اتتخار هانىء ومريم مغالطة واضحة ، فإن الثابت علمياً أن المتحرر يقدم على الاتتخار ، ولكنه عندما يشعر بالألم أو بالخطر المحتم فإنه يستنجد ويحاول التخلص مما أقدم عليه ، فعجبًا كيف ماضى الاثنان متخارصرين إلى حتفهما ؟ إنها الروح الروائية التي تعبث بكل القيم .

إن فكرة الاتتخار نفسها ما هي إلا من اختراع الكاتب ليقرر فكرة ضعف الایمان عند هانىء والعرب بشكل عام ، فإذا أثبتت هذا الأمر كحقيقة واقعة أثبتت بطلان فكرة الجهاد والفتح لغاية انسانية شريفة ، ليقنعوا أن الفاتحين ما قاموا إلا في سبيل السلب والنهب ، ويظهر ذلك إجلاله لأطراف الرواية الأخرى مثل شارل وأودو ٠٠

★ بعد هذه المناقشة لرواية « جرجي زيدان » : (شارل وعبد الرحمن) والتي هي جزء من مثيلاتها في سلسلة : (روايات تاريخ الاسلام) ، نقول والله يشهد الاخلاص في القول : « إن الأمة التي تريد البقاء ، تحمي تاريخها بسياج متين من الحراسة » ، نقولها مخلصين ، على يدأ مسؤولة تُظْهِرُ هذا التاريخ من الدنس والتشويه ، نقولها لعل قلباً غيوراً يدفعه نوره إلى حماية الجيل من افتراءات المدكّسين :

« لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية » ، الحاقة : ١٢ ٠

والحمد لله رب العالمين أولاً وآخرأ ٠

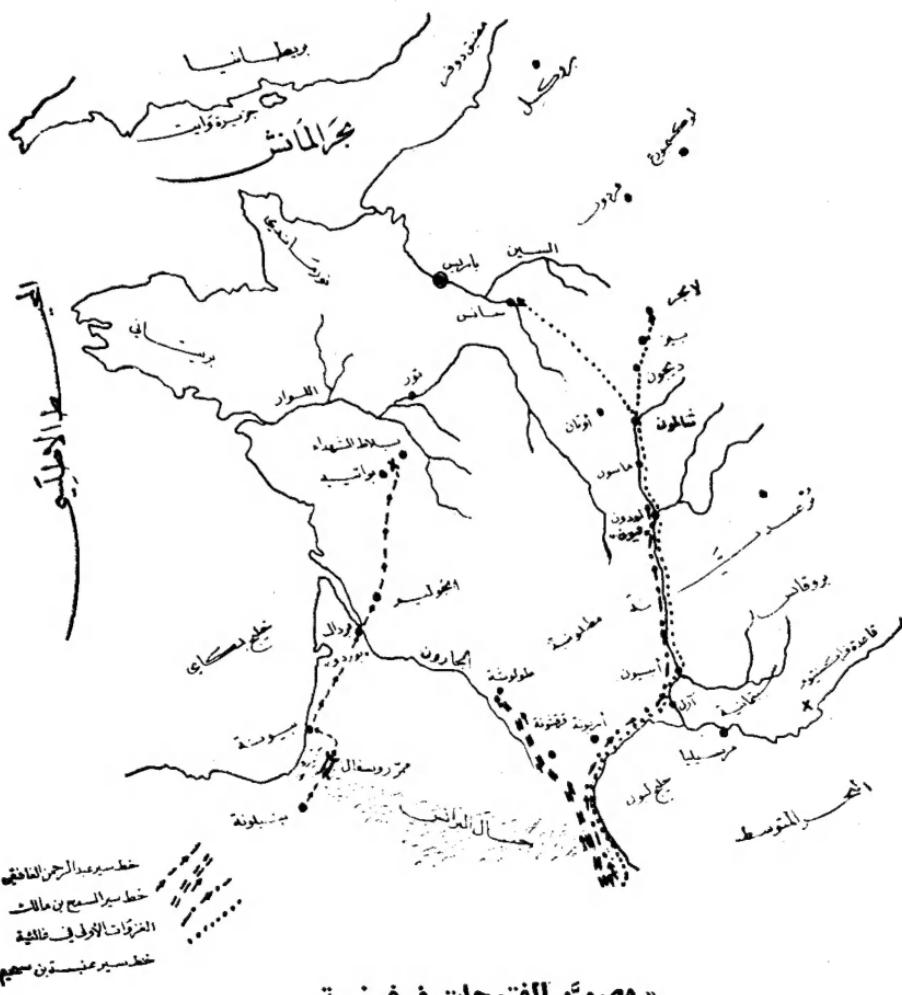
* * *

ولاة الأندلس

من الفتح عام : ٩٢ هـ حتى وصول عبد الرحمن بن معاوية « الداَخِل »
عام : ١٣٨ هـ (١)

٩٢ هـ	طارق بن زياد
٩٤ هـ	أبو عبد الرحمن موسى بن نصير
٩٥ هـ	عبد العزيز بن موسى
٩٧ هـ	أبيوب بن حبيب اللخمي
٩٨ هـ	الحر بن عبد الرحمن الثقفي
رمضان ١٠٠ هـ	السمح بن مالك الغولاني
١٠٢ هـ « المرة الأولى »	عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي
١٠٥ هـ	عنبيسة بن سليمان الكلبي
١٠٧ هـ	عذرة بن عبد الله الفهري
١٠٧ هـ شوال	يعيي بن سلامة الكلبي
١١٠ هـ حذيفة بن الأحوض الأشجعى	« حكم ستة أشهر »
١١٠ هـ شعبان	عثمان بن أبي نسفة الخثعمي
١١١ هـ المحرم	الهيثم بن عبد الكنانى
١١٢ هـ « شهران »	محمد بن عبد الملك الأشجعى
١١٢ هـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي	« للمرة الثانية »
١١٤ هـ عبد الملك بن قطن	بن نفيل بن عبد الله الفهري
١١٦ هـ عقبة بن الحجاج السَّلْوَلِي القيسى	
١٢٢ هـ عبد الملك بن قطن الفهري	« للمرة الثانية »
١٢٣ هـ بلج بن بشر القشيري	
١٢٤ هـ ثعلبة بن سلامة العاملى	
١٢٥ هـ الحسام بن ضرار الكلبي أبو الخطمار	
١٣٠ هـ يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة	
١٣٠ هـ ابن نافع الفهري	
١٣٨ هـ وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد الأندلس	

(١) معجم الانساب والاسرارات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، لزامباور ، مطبعة جامعة فؤاد الأول عام : ١٩٥١ ، صفة : ٨٥ .



«مصور الفتوحات في فرنسة»

المحتوى

صفحة

٥	تصدير
١١	المسلمون في فرنسة
٢٠	قائد بلاط الشهداء (عبد الرحمن الغافقي)
٢٤	المسلمون قبيل المعركة
٢٨	الفرنجة وشارل مارتل
٣١	المعركة ٠٠ بلاط الشهداء
٣٦	نتائج المعركة
٤٦	المسلمون في فرنسة بعد بلاط الشهداء
٥٤	خاتمة : خرافية مونوسة وشارل وعبد الرحمن
٧٦	ولاة الأندلس (٩٢ - ١٣٨ هـ)

للمؤلف

- ١ - الإسلام في قفص الاتهام (ترجم إلى الفارسية)
- ٢ - من ضيئع القرآن؟
- ٣ - الإنسان بين العلم والدين
- ٤ - هارون الرشيد
- ٥ - غريزة .. أم تقدير إلهي؟
- ٦ - آراء يهدّمها الإسلام
- ٧ - الإسلام وحركات التحرر العربية
- ٨ - عوامل النصر والمهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي
- ٩ - الهجرة «حدث غير مجرى التاريخ»
- ١٠ - جرجي زيدان في الميزان

سلسلة «المعارك الكبرى في تاريخ الإسلام»

- ١ - القادسية بقيادة سعد بن أبي وقاص
- ٢ - اليرموك بقيادة خالد بن الوليد
- ٣ - نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن المزني
- ٤ - ذات الصواري بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي سرح
- ٥ - فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد
- ٦ - بلاط الشهداء بقيادة عبد الرحمن الغافقي
- ٧ - فتح صقلية بقيادة أسد بن الفرات
- ٨ - الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين
- ٩ - الأرك بقيادة المنصور يعقوب الموحدي
- ١٠ - العقاب بقيادة محمد الناصر بن يعقوب الموحدي
- ١١ - مصري غرناطة «أبو عبد الله الصغير آخر ملوك بنى الأخر»

غزوات الرسول الأعظم

- بدر الكبرى : رمضان ٢ هـ - كانون الثاني ٦٢٤ م
- غزوة أحد : شوال ٣ هـ - كانون الثاني ٦٢٥ م
- غزوة الخندق : شوال ٥ هـ - شباط ٦٢٧ م
- صلح الحديبية : ذي القعدة ٦ هـ - شباط ٦٢٨ م
- غزوة خيبر : المحرم ٧ هـ - آب ٦٢٨ م
- غزوة مؤتة : جمادى الأولى ٨ هـ - إيلول ٦٢٩ م
- فتح مكة : رمضان ٨ هـ - كانون الثاني ٦٣٠ م
- حنين والطائف : شوال ٨ هـ - شباط ٦٣٠ م
- غزوة تبوك : رجب ٩ هـ - تشرين الأول ٦٣٠ م
- «حروب الردة» : «في خلافة الصديق سنة ١١ هـ»